السيد

EL - CID

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد
من « العروة الوثقى » في لندن

***

هو البطل القومي لاسبانيا ٠ ويهمنا أمره لان « بطولاته » كانت في غالبيتها ضد العرب في اسبانيا . وقد أصدرت السينما الامريكية فيلما طويلا ملونا عن حياة هذا الرجل فيه الكثير من المغالطات التاريخية ولهذا راينا من الضروري ان نستعرض حياته ونراه بوضوح تحت مصباح التاريخ .

اسمه بالاسبانية « رودريك دييث دي بيفار » وعرفه العرب بأسماء عديدة منها (لذريق البيفاري) ومنها (السيد القمبيطور) . وكلمة القمبيطور هي تحريف لكلمة اسبانية El-Compeador ومعناها المظفر . اما لقب (السيد) الذي أصبح معروفا به اكثر من اسمه الاصلي فقد علق به عندما كان يعمل قائدا في جند المقتدر ابن هود امير سرقسطة . وكانت الجنود تناديه كعادة أهل شمال افريقيا بـ « سيدي القمبيطور » ومع الزمن اسقط اللقب الاخير .

ولد لذريق سنة ١٠٤٣ في برغش Borgos وهي عاصمة قشتالة في ذلك الحين لان طليطلة لم تكن قد سقطت في يدهم بعد . وكان من عائلة نبيلة وتقول الرواية الاسبانية ان والده كان قاضيا ولسبب من الاسباب استاء منه الكونت (عبيدة) Obida شقيق الملك فرديناند فصفعه على وجهه امام الناس وغضب ابنه الشاب (لذريق) فذهب الى الكونت وتحداه للمبارزة انتقاما لشرف أبيه وقد بدا عمل ذلك الشاب جنونيا في ذلك الحين لان الكونت كان من أبرز قواد قشتالة واقدرهم على حمل السلاح ولهذا عندما انتصر عليه لذريق وقتله أصبح الشاب حديث العامة والخاصة. وكان القتل في المبارزة مسموحا به امام القانون وقد اثار عمله اعجاب الجميع الى حد ان « خمينا » ابنة القتيل اعجبت به فتزوجته رغم الثأر الذي بينهما .

وقامت الحرب بين الملك فرديناند ملك قشتالة وبين اخيه ملك اراغون وذلك على ملكية احدى المناطق فاتفقا على تحكيم السيف وابراز فارسين بالنيابة عنهما واعطاء المنطقة لمن يفوز فارسه على الاخر وكان (لذريق) فارس ملك قشتالة وكان (مارتين غوماز) فارس ملك اراغون وعند اللقاء انتصر لذريق على خصمه .

بعد ذلك توفى الملك فرديناند وانقسمت مملكته بين اولاده فنال سانشو (شانجة) مملكة قشتالة ونال الفونسو (الاذفنش) مملكة ليون ونال الاخ الصغير (غرسيه) ملك جليقية والاخت (اوراكا) مدينة سمورة والاخت (البيرة) مدينة تورو . وبدأ الصراع بين الاخوة فهاجم سانشو مملكة جليقية وضمها الى بلاده وهرب ملكها غرسيه الى بلاط المعتمد سنة ١٠٧١ ثم هاجم سانشو مملكة ليون ولكن اخوه الفونسو (الذي اصبح فيما بعد الملك الفونسو السادس) كان مستعدا له فهزمه في معركة حاسمة اسمها موقعة (غولبيجارة) وبينما كان سانشو يتهيأ للهرب في جنح الليل مع فلول جنوده جاءه احد قواده واشار عليه بأنه من الحزم ان يشن هجوما جديدا على جيش اخيه في نفس تلك الليلة لان أخاه منهمك مع قواته في الاحتفال بالنصر . واخذ سانشو بنصيحة قائده وبذلك تبدلت هزيمته بنصر ساحق . وكان ذلك القائد هو لذريق البيفاري وهذه اول مرة يظهر اسمه فيها ظهورا بارزا في التاريخ وتظهر معه حصافته العسكرية وأصبح لذريق منذ ذلك الحين صديق الملك سانشو يرافقه اينما ذهب . اما الفونسو ملك ليون المهزوم فيلتجيء الى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة حاملا في قلبه حقدا عظيما على لذريق . ويتوجه سانشو الى مهاجمة اخته اوراكا فيحاصر قلعتها الرئيسية في مدينة سمورة وفي ٦ اكتوبر سنة ١٠٧٢ نفذ الى معسكره فارس وطلب مقابلته لينبئه عن احوال المدينة المحصورة وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وارداه مضرجا بدمائه وفر الى المدينة هاربا وكان (لذريق) واقفا مع الملك القتيل في تلك اللحظة بالذات .

واجتمع الاشراف في برغش واتفقوا على استدعاء الفونسو ليتولى الحكم مكان اخيه بشرط واحد هو ان يقسم بانه لم يشترك بأي حال في تدبير مقتل اخيه سانشو وبعثوا اليه رسلهم الى طليطلة حيث كان نازلا في ضيافة ابن ذي النون ولما وصل الفونسو الى برغش واجتمع باشراف المملكة وكبرائها طلبوا اليه ان يقسم بانه لم يشترك باية صورة في تدبير مقتل اخيه فنزل الفونسو عند رغبتهم بيد انه لما انتظم الجمع لم يجرؤ احد من الاشراف ان يتولى تحليف الملك وعندئذ تقدم منه الفارس (لذريق) قائد اخيه سانشو ومستشاره وتولى تحليفه اليمين بنفسه فلما اداها اضاف لذريق من عنده عبارة أخرى قال فيها انه يطلب الى الله ان كان الفونسو كاذبا ان يسلط عليه خائنا يقتله كذلك الذي اغتال اخاه سانشو . وقد خلفت جراة هذا الفارس في نفس الفونسو اثرا لا يمحى ولم يصف قلبه له فيما بعد .

وظل لذريق في بلاط قشتالة فترة من الزمن ذهب اثناءها مرسلا من الملك الفونسو الى المعتمد بن عباد لاستلام الجزية السنوية من مملكة اشبيلية وكانت تغير على بلاد المعتمد سرية من قوات عبد الله ملك غرناطة فما كان من لذريق الا ان ذهب بجنوده وهزم قوات عبد الله فسر المعتمد وادى الجزية واضاف اليها طائفة كبيرة من التحف والهدايا .

وكانت الدسائس تحاك ضد لذريق في بلاط قشتالة وكانت اذن الملك الفونسو مستعدة للانصات الى تلك الدسائس اذ ان الفونسو لم ينس له قط وقوفه ضده الى جانب اخيه سانشو وانتصاره عليه فاتهمه باحتجاز بعض الهدايا والتحف لنفسه . ويقرر الملك ابعاد لذريق عن بلاطه ونفيه عن سائر اراضي قشتالة وذلك في سنة ١٠٨١م .

ومن هنا يذهب لذريق الى المعسكر العربي وتبدأ مغامراته الحقيقية ويصبح من هذا الوقت قائد جيش مرتزق ويذهب مع جيشه الى المقتدر بن هود امير سرقسطة ويضع نفسه وجيشه تحت تصرف مملكة سرقسطة العربية . ويتوفى المقتدر في نفس ذلك العام بعد ان يقسم مملكته بين ولديه المنذر الذي اعطاه دانيه وطرطوشه ولارده وبين المؤتمن الذي اعطاه سرقسطة اما لذريق (الذي يأخذ في ذلك الحين لقب السيد) فينضم مع جيشه الى المؤتمن وعندما تنشب الحرب بين الاخوين يحارب السيد الى جانب المؤتمن وينتهي الامر بانتصار المؤتمن ويعود السيد الى سرقسطة ظافرا ويحتفي اهلها به ايما احتفاء ويبالغ المؤتمن في اكرامه واثابته . ولما توفى المؤتمن سنة ١٠٨٥ (وهو عام سقوط طليطلة) خلفه ابنه المستعين والتحق السيد بخدمته واستمر على نفوذه ومكانته .

وفي العام التالي تأتي جنود المرابطين لخوض معركة الزلاقة ويحس ملوك الطوائف ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين لا يضمر لهم الخير ويقول في ذلك ابن بسام في الذخيرة « ولما احس احمد بن يوسف بن هود المنتزى الى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة بعساكر امير المسلمين تقبل من كل حدب وتطلع على اطرافه من كل مرقب آسد كلبا من اكلب الجلالقة يسمى برذريق ويدعي بالكمبيطور وكان عقالا وداء عضالا له في الجزيرة وقائع وعلى طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع وكان بنو هود قديما هم الذين اخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول وسلطوه على اقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات انجادها ويركز علمه في أفلاذ اكبادهم حتى غلظ امره وعم اقاصيها وادانيها شره » .

ومن الطريف هنا ان نذكر ان ابن بسام كتب « الذخيرة » عام ١١٠٩ اي بعد موت (السيد) بعشر سنوات ولذلك فان ابن بسام هو في الواقع اقدم مرجع تاريخي عن حياة (السيد) فهو يستمد معلوماته ممن عرفوا السيد معرفة شخصية .

وفي سنة ١٠٨٨ يخرج المستعين ومعه (السيد) لفتح بلنسية ويخبرنا ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية ان قوة المستعين لم تكن تعدو ٤٠٠ فارس اما جيش (السيد) فكان يضم ثلاثة الاف فارس وهي قوة ضخمة في ذلك الحين . وعندما وصلت قوات المستعين والسيد ضواحي بلنسية رفض (السيد) ان يهاجم المدينة معتذرا بان صاحبها القادر بن ذي النون مستظل بحماية ملك قشتالة واية محاولة لافتتاحها هي اعتداء على حقوق الملك الفونسو ويغضب المستعين وينسحب بقواته الى سرقسطة وتنقطع العلاقة عند ذاك بينهما اما (السيد) فيذهب الى قشتالة وهناك يحصل من الملك الفونسو على وثيقة تؤكد بان كل الاراضي والحصون التي يستطيع (السيد) ان ينتزعها من العرب تغدو ملكا خاصا له ثم لاولاده وبناته وسائر عقبه من بعده ميراثا شرعيا . ويعود (السيد) ومعه سبعة آلاف مقاتل ويصبح في الواقع رئيس عصابة ناهبة تجوب انحاء الممالك الشرقية العربية من الاندلس طلبا للغنيمة والسلب فيفرض اتاوات على تلك الممالك فكان يأخذ من القادر بن ذي النون عن بلنسية ١٢٠ الف دينار سنويا ويأخذ عن طرطوشة ٥٠ الف دينار ويأخذ من ابن رزين عن شنتمرية الشرق عشرة الاف دينار ومن البونت عشرة الاف ومن المنارة ثلاثة الاف ومن كل من مربيطر واشكرب ٦ الاف ويقول في وصفه ابن بسام ما يلي « كان هذا البائقة وقته في درب شهامته واجتماع حزامته وتناهي صرامته آية من آيات ربه وكان – لعنه الله – منصور العلم مظفرا على طوائف العجم وكان – زعموا – تدرس بين يديه الكتب وتقرأ عليه سير العرب فاذا انتهى الى اخبار المهلب استخفه الطرب وطفق يعجب منها ويتعجب » .

محنة بلنسية : اعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النير الذي فرضه السيد على المدينة وكان قاضي المدينة ابن جحاف يتزعم الحزب المناوىء للسيد وفاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة على تسليم بلنسية اذا ساعده على التخلص من السيد ويحي القادر فاستجاب ابن عائشة وارسل سرية من جند المرابطين وما ان وصلت بلنسية حتى قاد ابن جحاف جموع الثائرين واقتحموا القصر وبحثوا عن يحي القادر حتى عثروا به وكان قد اختفى في بعض حمامات القصر ومعه صندوق من الحلى والجواهر فقتل في الحال وحمل راسه على رمح وطيف بها في شوارع بلنسية وكان ذلك سنة ١٠٩٢م واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الجواهر والاموال والذخائر التي كان يحتفظ بها القادر .

ويقول في هذا الحادث ابو عبد الرحمن بن طاهر

مخاطبا القاضي ابن جحاف وكان اخيفا اي له عين زرقاء واخرى سوداء :

ايها الاخيف مهلا	فلقد جئت عويصا
اذا قتلت الملك يحيى	وتقمصت القميصا
رب يوم فيه تجزى	لن تجد عنه محيصا

ويحي القادر هو نفسه الذي كان ملك طليطلة وقد ساعده الفونسو بعد سقوط طليطلة ان يصبح ملكا على بلنسية فكان هناك بمثابة عميل له ورمز لنفوذ قشتالة وسلطانها .

ولما علم (السيد) بهذه التطورات سار في الحال صوب بلنسية وارسل الى ابن جحاف يطلب اليه طرد المرابطين ويتعهد له بان يتركه حاكما في بلنسية واخيرا تم الاتفاق على ان يغادر المرابطون المدينة امنين . وان تؤدى للسيد الجزية السابقة كما كانت من قبل وان تبقى ضاحية الكدية بيد السيد .

ولكن السيد لم يلبث ان اخذ يشتط في مطالبه فطلب ان ينزل في ضاحية بشمال بلنسية الشرقي ثم طلب ان ينزل في ضاحية في جنوبها وهو يرمي الى تطويق المدينة ثم طلب من ابن جحاف ان يسلم له كل موارد المدينة وان يقدم له ابنه رهينة بولائه . وعندئذ رفض ابن جحاف وارسل يستغيث بالمرابطين من جديد وضرب السيد حصارا حول المدينة استمر ٢٠ شهرا ويقول ابن بسام في ذلك « وقوى طمع لذريق في ملك بلنسية فلازمها ملازمة الغريم وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ينتسف اقواتها ويقتل حماتها ويسوق اليها كل منية ويطلع عليها من كل ثنية وبلغ الجهد والامتحان باهل بلنسية ان احلوا محرم الحيوان واكلوا الكلاب والجيف والفيران وغدوا كالاشباح هزالا» وعندئذ اجتمع اعيان المدينة وارغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد وسلمت بلنسية على الشروط التالية « ان يبقى ابن جحاف قاضيا للمدينة وحاكما لها وان يؤمن في نفسه وماله واهله وان يتولى مندوب السيد الاشراف على تحصيل الضرائب وان تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين (المستعربين) الذين يعيشون بين المسلمين وان يرابط السيد خارج المدينة والا يغير شيئا من شرائع المدينة واحكامها » .

ودخل السيد وجنده بلنسية سنة ١٠٩٤م وفي الحال احتلوا ابراجها خلافا لشروط المعاهدة ونزل السيد بالقصر وطلب من ابن جحاف جميع اموال القادر وذخائره فسلمها له ولكنه شدد عليه في السؤال عما اذا كان قد بقي لديه شيء منها وطلب اليه الحلف امام اعيان الشهود من الملتين فحلف ابن جحاف بانه لم يخف شيئا وليس لديه شيء منها وانذره السيد بانه ان وجد لديه شيئا منها فانه سوف يستبيح دمه ووافق على هذا العهد اعيان الملتين وتشاء الاقدار ان يقع السيد بعد ذلك بقليل على بعض الحلى والذخائر التي اخذها ابن جحاف من القادر حين مقتله. ويقال انها كانت مدسوسة من السيد وضعها بعض اعوانه في بيت ابن جحاف فكان ذلك نذيرا بنكبته المروعة التي ترك لنا عنها المؤرخ البلنسي المعاصر وشاهد العيان ابو العباس ابن علقمة صورا مؤسية مبكية .

قال ابن علقمة « ان القنبيطور امر بتعذيب ابن جحاف فعذب عذابا شديدا ثم امر به فجمع له حطب كثير وحفرت له حفرة واقيم فيها واصير الحطب حوله واوقدت فيه النار فكان يضم النار اليه بيديه ليكون ذلك اسرع لخروج روحه » .

وقال ابن بسام « اخبرني من رآه في ذلك المقام وقد حفر له الى رفقيه واضرمت النار حوله وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ليكون اسرع الى ذهابه واقصر لمدة عذابه كتبها الله له في صحيفة حسناته ومحا بها سالف سيئاته وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجته وبناته فكلمه فيهن بعض طغاته فبعد لاي ما لفته عن رأيه وتخلصن من يدي نكرائه واضرم هذا المصاب الجليل اقطار الجزيرة يومئذ نارا وجلل سائر طبقاتها حزنا وعارا » .

وامر السيد باحراق جماعة من اعلام بلنسية منهم ابو جعفر البتي الشاعر المشهور وغدا السيد كانه ملك متوج وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرقي الاندلس كله .

وزار ابن خفاجة مدينة بلنسية في تلك الفترة فرسم لنا صورتها وهي على تلك الحال في هذه الابيات :

عاثت بساحتك العدى يا دار	ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك خاطر	طال اعتبار فيك واستعبار
ارض تقاذفت الخطوب باهلها	وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	لا انت انت ولا الديار ديار

قال ابن بسام « وتجرد امين المسلمين (يوسف بن تاشفين) عندما بلغه هذا النبأ الفظيع واتصل به هذا الرزء الشنيع فكانت قذى اجفانه وشغل يده ولسانه » وبعد ثلاثة اشهر من سقوط بلنسية كان المرابطون قد بدأوا هجومهم عليها لاستردادها وضربوا عليها حصارا شديدا وسار جيش مرابطي آخر من الجنوب فهزم قوة قشتالية في موقعة قتل فيها ابن (السيد) الوحيد واسمه (دون ديجو) وكان السيد على فراش المرض فادمى قلبه مصرع ابنه الوحيد فمات غما والما وذلك سنة ١٠٩٩ وهي السنة التي فتح بها الصليبيون بيت المقدس وكان عمره ٥٦ عاما . وتولت مكانه زوجته خمينا واستطاعت ان تصمد امام هجمات المرابطين زهاء عامين آخرين الى ان تم تسليم المدينة الى الامير المرابطي ابي محمد المزدلي فدخلها في ٥ مايو سنة ١١٠٢م وخرجت خمينا من بلنسية مع جميع عسكر السيد ولم يحاول



القهوة الفائرة

وشاتم قهوة من أجل فورتها — وأنها الهبت كفيه فاحترقا
لم يدر ان التي بالنار عذبها — ستطلب الثار ممن سامها وسقى
فلو أصاخ لها غضبى مزمزمة — لراعه الحقد اما يغتلي حنقا
هيهات يقبل كأس الظلم ذو شمم — وان دهته رحى الايام فانسحقا

وديع ديب

المرابطون ان يتعرضوا بسوء لجيش خمينا راضين منهم بالجلاء فمشت المقدمة بقيادة بيرمودة Bermudez يحمل راية السيد ومعه ٤٠٠ فارس وتلاه ٤٠٠ فارس يحملون الدواب والاثقال ثم جاء حصان السيد المسمى (بابيكا) وعليه جثة السيد وقد وضعوا ترسه في عنقه والسيف في يده وكان له سيفان احدهما يسمى تيزونة Tisona والثاني كولادة Colada وكان السيد محنطا تحنيطا جيدا وكانت لحيته مرتبة كما لو كان حيا .

وسار المطران جيروم من جهة وميلدياز من جهة اخرى يخفران جثة السيد ومعهما ١٠٠ فارس وسارت هذه القافلة بتؤدة حتى بلغت برغش في قشتالة فلم يسارعوا بدفنه بل وضعوه على كرسي من عاج على يمين المذبح في دير مار بطرس واسندوا راسه على مخدة من المخمل وفي يده اليسرى سيفه تيزونة ثم دفن بعد ذلك في الدير ولا يزال قبره هناك حتى الان .

وماتت خمينا امرأته بعد هذا باشهر قليلة وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمنا بالنصر . وقد ترك ابنتين واحدة تزوجت ابن ملك نافار والاخرى ابن ملك اراغون .

وهنا نقف لنأخذ نفسنا قليلا ونتأمل في رجل لا شك في شجاعته ومهارته العسكرية الا انه في الحقيقة لم يكن الا رئيس عصابة من المرتزقة وقد استطاع ان يصبح سيدا لشرق الاندلس كله ويأخذ الجزية لنفسه من عدة ملوك من ملوك العرب وما ذلك الا لان ملوك العرب كانت متفرقة متناحرة ولكن تلك العصابة لم تجرؤ حتى على الوقوف والقتال امام المرابطين عندما اتحدت كلمة العرب وكونوا صفا قويا منيعا . وهكذا عادت بلنسية الى « حظيرة العروبة » مرة اخرى لمدة ٣٠٠ سنة اخرى .

ومن المهم ان نذكر هنا ان بلنسية كانت رابع حاضرة اندلسية عربية في ذلك الحين تأتي مباشرة بعد اشبيلية وغرناطة وقرطبة . ويقول ابن بسام انها لذلك كانت في (عقر دار الاسلام) . وكان العرب يسمونها (مدينة ابي طرب) . وكانت تحيطها البساتين النضرة لاميال عديدة وفي ذلك يقول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز امير بلنسية :

كان بلنسية كاعب — وملبسها سندس اخضر
اذا جئتها سترت نفسها — باكمامها فهي لا تظهر

وكانت بلنسية من كثرة ما يحيطها من بساتين تفوح فيها دائما رائحة زكية من الزهور والرياحين وفي ذلك يقول ابو عبد الله محمد الرصافي (نسبة الى رصافة بلنسية) :

خليلي ما للارض قد عبقت نشرا — وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا
هل المسك مفتوقا بمدرجة الصبا — ام القوم اجروا من بلنسية ذكرا

هذه قصة السيد القمبيطور الذي اصبح فيما بعد اسطورة وبطلا قوميا لاسبانيا ونحن اذ لا نلوم الاسبان لاتخاذهم اياه بطلا يعظمون اعماله وينسجون حولها اثوابا فضفاضة من الاسطورة والخيال الا اننا نجد في الفيلم الامريكي عنه اجحافا بل وتشويها للدور التاريخي الذي لعبه ذلك الرجل في التاريخ العربي في الاندلس .

لندن — فؤاد جبور حداد

الى طفل الامس

فــؤاد الخشــن

الشويفات ـ لبنان



هــو ظلك !
هو في مرآة هذا الراكد الماسي شكلك
ايها الواهم في الصفو الغديري المثال
مغدقا من عذرة الذات ومن تيه الخيال
تنفق العمر اغترابا خلف آل
لامع ، ترقصه الشمس على وهج الرمال

لا تقبله فهذا الحسن وجه يتكسر
اذ تمس الماء يحفر في النفس غيابا
تجتني منه شحوبا وعذابا
ثم تغدو زهرة من نرجس مرتعش
تسكب الدمع على صورتها
لهفات وهياما يتقطر

طائفا ما زلت بين الجزر
بشراع السندباد
باحثا ناظر اصرار ومجذاف عناد
عن بقايا بيضة الرخ التي
يجتليها للاساطير خيال
ضاق عن آفاقه رحب المجال

باحثا ما زلت في بيروت عن
وجه انسان ابى ارث القناع
لم يزل في دمه الريفي للضوء شراع
واذا الجنة غامت فوق عينيك ظلال
رحت تهذي مثل « توما » وتحقق
مثله ترقص ، شكا ، ان تصدق
هاجس القول وصحو النظر

ذاهل انت وفي عينيك غيمه
غائب عن بهجة الحفل صموت
اي حلم خلف عينيك يموت ؟

قد حباك الله يا طفلا اثيريا شرود
كل شيء تبتغيه
كل اغداق نعيم تشتهيه
دعك مما يستثير الحزن ، من وجه الصراحه
من شؤون الناس ، من نصح على الناس كريه
اطفىء الشمع وقطع كل اوتارك
ان شئت بهذا العمر راحه
خل للفارق في الرجس جراحه
ولضلع الاثم ناره
خل للجرح السدومي جماره
لا تضع اصبعك المعقوف
في شكل سؤال خنجري الظفر ، فيه
انت في عصر ضياع
لست من طين بنيه

قصة

الجدب والطوفان

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

— ١ —

في الظهيرة المحرقة كان كرنيك همبرسوميان ومساعده مصلح العواد ، تلفهما غبرة جرار الفوردسن الخانقة ، متجهين بجرارهما نحو الطريق العام ، الطريق المتجه الى حلب . صاح مصلح فجأة :

— انظر اليه يا معلم ... انه يشير الينا ويقاطعنا على الدرب .

فالتفت المعلم كرنيك الى حيث اشار مصلح . من بعيد والى يمين طريق الجرار كان رجل يعدو وهو يحرك بيده محرمته ، غطاء راسه ، ليسترعي نظرهما . في الجو المتقد وعلى الارض المبسوطة الغبراء بدا الرجل كأنه عود كبريت وكأن المحرمة الحمراء المتحركة فوق راسه شعلة اللهب التي تحرقه . قال مصلح :

— ربما كان عطشان . ياويل العطشان في نهار الجمر هذا .

فقال المعلم كرنيك وهو ينحرف بالجرار في اتجاه الرجل :

— لعله يريد منا ان نحمله مع نعجاته الى الطريق العام . الا ترى النعجات ؟ خمس او ست . يا ليت عندنا تريلا لننقله هو ودوابه ... كنا على الاقل حصلنا ثمن المازوت الذي يوصلنا الى حلب .

توقف الرجل عن الركض حين راى الجرار يتجه نحوه ، ولكن يده لم تتوقف عن التلويح بالكوفية الحمراء . النعجات كن نقاطا غبرا صعبة التميز في لونها عن الارض المحروقة ، التي لم تذق طعم المطر منذ اسابيع واسابيع على الرغم من ان الربيع لا يزال في اوله . ست نعجات كما قال المعلم كرنيك، تبينت اشكالها واضحة لما اقترب الجرار منها ، برؤوسها المرخاة ، واقفة دون حركة تحت نار الشمس المسلطة كأنها تنتظر ان تذوب بتلك النار . وعاد الرجل ادراجه الى موقف النعجات حتى اصبح بينها وبين الجرار . قال مصلح :

— هذا الرجل عطشان ، ميت من العطش ، او مجنون . ماذا يوقفه في هذه البرية القاتلة ؟ الطريق العام ما عاد بعيدا منه .

اوقف المعلم الجرار عن السير دون ان يطفيء المحرك ، وقال بلكنته الارمنية التي تغيب فيها مخارج بعض الحروف :

— اعطه القربة ... الله يعلم من اين اتى ... ربما من الرصافة .

واشار الى الرجل ليتقدم ، بينما انحنى مصلح ليتناول القربة المعلقة تحت المقعد .

ولكن الرجل ظل في مكانه جامدا . ارتخت يده التي كان يشير بها لراكبي الجرار ، وتصلبت تقاطيع وجهه كأنه مبهوت . لعل مصلح لم يكن مخطئا حين ظن بهذا البدوي الجنون من منظره . فقد كان عاري الراس ، مشعث الشعر، قد خرط عقاله في عنقه وبدا وجهه مشققا ترابيا بلونه وبما تراكم عليه من غبرة البادية المجدبة ، وحول ملتقى شفتيه بقايا زبد جاف . لو كان عطشان لهجم على قربة الماء ، ولكنه ظل واقفا بين الجرار ونعاجه .

التفت المعلم الى معاونه وقال :

— اسأله ، ماذا يريد ؟

فرفع مصلح صوته حتى يبين في ضجة محرك الجرار ، وفي يده قربة الماء ، قائلا :

— ما تريد يا عم ؟ عطشان ؟

فادار الرجل رأسه وتطلع الى الدواب الواقفة . كانت نعاجا هزيلة ، ضاوية ، تبدو بطونها ملتصقة بظهورها من خلال جزز الصوف الوسخ التي تتهدل على جنوبها المفضنة ... نعاجا مثل كل النعاج التي رآها كرنيك ومصلح في البوادي في سنة القحط المهلكة هذه ... لا بل انها اسوأ حالا ومنظرا من كل ما وقعت عليها انظارهما في هذه الايام الاخيرة .

قال مصلح للبدوي الذي كان ينقل نظره بين الجرار والغنم :

— انت ترى ... ليس لتراكتورنا تريلا مقطورة ، والا لكنا نقلناك انت والدواب . ما عليك الا ان تتابع السير فتبلغ الطريق العام .

فالتفت الرجل الى المعلم كرنيك، كأن كلام مصلح لم يعجبه ، وقال بصوت اجوف :

— لا اريد ان تنقلها ... اريد ان تقتلها .

صاح المعلم كرنيك الذي ظن ان ضجة المحرك ابهمت عليه كلام مخاطبه :

— تقول ماذا ؟

فتقدم الرجل من موقف الجرار مستديرا حوله حتى بلغ مقعد السائق في المؤخرة ، ووضع يده على ركبة المعلم كرنيك ثم انحنى عليها ليقبلها ، وهو يقول :

— دخيلك انا ... اقتلها . اعفسها . عجل .

كان صوته كصوت الباكي ، فادار المعلم وجهه الى مساعده وقال :

— هذا البدوي ذوبت الشمس نخاع رأسه !

ثم التفت الى الرجل المسكين ، بعد ان ابعد رأسه عن ركبته ، وقال :

ـ الله يرضى عليك يا عمي ... نريد ان نصل الى الطريق العام . امامنا سفرة طويلة الى حلب . ابعد عن طريقنا .

ومد يده الى مغير السرعة يريد ان يسير الجرار ، فتباعد الرجل ثم عدا حتى وقف امام هيكل الآلة الضخم ، وصاح :

ـ أعفسني او اعفسها .

فصرخ مصلح في حنق :

ـ يا عم ، مجنون انت ؟ ابعد عن طريق التراكتور .

ورفع المعلم كرنيك قدمه عن ضاغط الوقودوهو يهمهم بالارمنية. لو ان الجرار تحرك شبرا لبطح الرجل ان لم يسر على جثته ، فالفرامل ينقصها الزيت وهي لا تطاوعه كل المطاوعة . وتناهض من مقعده متطلعا الى عيني البدوي من فوق كتلة الجرار ذات الغطاء الازرق الكالح . عينا الرجل لم تكونا عيني مجنون ، كما لم تكونا عيني انسان سوي ... كان فيهما حزن ، وكان فيهما حنق .

قال المعلم لمساعده :

ـ كما قلت لك ... هذا البدوي اذابت الشمس نخاع راسه . بعد عشرة ايام من التعطل والكساد لم نحصل فيها على عمل بقرش واحد، ما عاد ينقصنا الا ان نرجع بدمه في رقبتنا . اتركني اكلمه بالطيب.

واخرج المعلم كرنيك سيكارة من العلبة الورقية في جيبه ، واشعلها ثم انحدر الى حيث كان واقفا فقدمها له . لم يزحزح الرجل قدميه من مكانهما ، ولكنه تناول السيكارة بلهفة وسحب منها انفاسا عديدة متلاحقة . كان بياض عينيه محتقنا بعروق حمر ، وخيشوماه يتسعان ويضيقان في كل حركة تنفس . قال مصلح الذي انحدر من مجلسه على جناح الجرار ، وبلهجة مطايبة :

ـ الله يعاونك يا عم ... من اين اقبلت في هذا الحر الذي يشوي ؟

اجاب البدوي بفتور وشك ، كأنه لا يتوقع خيرا من هذا السؤال :

ـ من عنز وعنيز . ترى هذه النعجات الست ؟ كانت اثنتين وسبعين دابة .

ـ واين الباقيات ؟

ـ ماتت . ماتت وموتتني . بعت الغالي والرخيص حتى اطعمها . في اول الشتاء امطرت السماء مرة واحدة ، وبعدها صحو وشمس ... شمس وريح شمالية ... شمس وغبار ... شمس وزوابع ، حتى ما ظلت نبتة على الارض . اطعمت غنمي لحم كتفي في انتظار المطر والربيع ... لا امطرت الدنيا ولا جاء الربيع . من اثنتين وسبعين دابة لم يبق غير هذه الست . البقية زرعت اشلاءها على الطريق من عنيز الى هنا ، عند كل قليب تركت شلية . القلبان ناشفة والغدران تسفي مجاريها الريح ...

كان البدوي يتكلم بسرعة وبطلاقة تشبه الحماس . ولم يفهم المعلم كرنيك كل مقالته ولكن الالفاظ التي يفوته معناها كانت واضحة في وميض العين ونبرة الصوت وتغضن الملامح . لقد كان البدوي يتكلم عن الجدب ، وهل غير الجدب عاد بالمعلم كرنيك خاوي الجيب ، مفلسا من المال والعمل ، الى حلب ، بعد دورة اسابيع بحثا عمن يفلح ارضه بالاجرة فلا يجد ؟ شريكه في حلب ينتظره بجزء من قسط الجرار المستحق في اول نيسان . ولكنه سيعود غدا ليقول له أن ما من انسان في السهول الممتدة في الشامية بين حلب والرقة يريد ، او يملك ، في هذه السنة المجدبة ، ان يفلح لموسم السنة القادمة . فسأل البدوي :

ـ والى اين انت ذاهب بهذه الغنمات الآن ؟

ـ لا الى مكان . اريدك ان تعفسها بهذا التراكتور حتى تسوي بها الارض . كنت اريد ان آخذها الى ابي هريرة . هناك ارويها على الاقل من ماء الفرات . اسقيها حتى تتفزر بطونها ريا . ولكني اعرف انها لا تصل الى هناك . انظر اليها : ميتة قبل ان تموت ... ليس لاجسامها ظل على الارض كأن جلودها غرابيل تنفذ الشمس منها، من هزالها . اريدها ان تموت امامي لاعرف انها ماتت ، واني استرحت ... لامشي الى ابي هريرة خفيف الحمل خفيف النفس .

تطلع المعلم ومساعده الى النعجات . في الواقع لم يكن لها ظل على الارض . لم تكن تتحرك ، ورؤوسها المدلاة ملامة الارض كانت جامدة لا تهتز ، وكأن لم يعد في افواهها ريق تجتر به طعاما او هواء . غير ان جنوبها كانت تضطرب كأنها في النزع . وادار المعلم نظره الى جراره وقال لنفسه :

لولا ان هيكل الفوردسن من حديد لكان ، مثل هذه النعجات ، لا ظل له في هذه الشمس المحرقة : يبدو ابتر لانه اودع سكته في احدى القرى ، وما نفع سكة لا يريد احد ان يفلح بها ؟ الفرام لا يمسك لانه لم يبق فيه زيت ، والمازوت لا يكاد يبلغه حلب . وعاد الى البدوي يحاوره :

ـ وانا كذلك يا عمي قتلني الجفاف وقلة المطر . لا انسان في كل الشامية يريد ان يفلح شبر ارض ... اتراني اطلب منك ان تحرق الجرار ؟ لماذا تكلفني ان اعفس نعجاتك ؟ اتركها في الفلاة واكمل طريقك .

قال البدوي :

ـ لا اقدر ... لا اقدر .

تراكتورك حديد وخشب ، وهذه النعجات ارواح تتطلع الي بعيونها. وتظنها لا تفهم ؟ هي تدري ان ما بيدي شيئا ينفعها ، ربيتها مثل اولادي ، وصرفت عليها كل ما عندي ، وغرقت في الدين وانا اعلفها ... في انتظار المطر . تدري ؟ بنتي نشمية ماتت بالحصبة لاني لم آخذها الى الحكيم الذي بالسخنة ... كنت اشتري للغنم كسبة من البلد ، وكنت بين ان اشتري الكسبة وبين ان اطبب البنت ، ماتت البنت . وبعدها ماتت الغنم الا هذه الست . لا اقدر على ان اتركها ... لا اقدر . خلصني منها والله يخليك !

التفت المعلم نحو مصلح ، فهز هذا كتفيه كمن يقول : الم اقل لك ؟ بدوي مجنون ! حينئذ قال المعلم كرنيك :

— واذا عفست لك هذه النعجات، الا تدعو علي ؟ ألا تطالبني بشيء ؟

قال البدوي بحرارة :

— ابدا والله . وانما اريد ان يبرد قلبي بأن اراها تموت ، لا من الجوع والعطش ، ولا من يدي انا ... موتة مستعجلة تحت ثقل الحديد .

— اذن جمع النعجات الواحدة بجانب الاخرى وابتعد ... ابتعد كثيرا وادر وجهك . اخاف ان يكسر قلبك رؤيتهن تحت دواليب التراكتور .

فاستدار البدوي مسرعا كأنه لم يصدق ما يسمعه ، واخذ يجر النعاج حتى خالف برؤوس بعضهن اعناق الاخرى . كانت يداه ترتجفان وظهره محنيا على ظهورها كأنه كان يمرغ وجهه في اصوافها المثقلة بالغبار والاشواك . اما تلك الحيوانات البائسة فكانت تتكوم بين يديه في طواعية واستسلام ، ملقية رؤوس بعضها على اعناق بعض ، وقد اعانها ذلك في حمل ثقل رؤوسها على رقابها الواهية . اما المعلم كرنيك فقد صعد الى جراره، يتبعه معاونه ، وحركه الى الوراء مبتعدا عن كومة النعجات ، ثم صاح بالبدوي :

— زين ما فعلت . الآن ابتعد يا عم .

فابتعد الرجل بضع خطوات ، متراجعا بينما عيناه لا تفارقان دوابه . فعاد المعلم كرنيك يصيح به :

— هذا لا يكفي . قف عند شجرة الشوك التي تراها هناك .



الدكتور عبد السلام العجيلي

•

كما قلت لك ادر وجهك ... لا تتطلع الينا .

فامتثل البدوي لما طلب اليه ، وسار يجر رجليه الى بقايا شجرة شوك قد تجمع الرمل في اسفلها كثيبا صغيرا . عندئذ قال المعلم كرنيك لمساعده :

— مصلح . عندك تنكة لا يزال نصفها مملوءا ماء . انزل بها وضعها على الارض ثم الحقني . اخاف على الرجل ان ينفجر من العطش ومن القهر .

ففعل ذلك مصلح . وحين عاد فأخذ مكانه من جناح الجرار اعطى كرنيك همبرسوميان كل السرعة للمحرك ، الا انه بدلا من ان يسير بدواليب الكوتشوك ، المخيفة ، على الاجساد الضاوية لتلك النعجات ، مر الى جانبهن مسرعا في اتجاهه الى الطريق العام . وانطلقت من الارض العطشى زوبعة لفت كومة النعاج بستار من الغبار كثيف .

وبعد فترة ، ودون ان يلتفت الى الوراء ، سأل المعلم مساعده :

— هل ترى البدوي ؟

— نعم . النعجات في مكانهن ، لم يتحركن . من اين لهن القوة على الحركة ؟ اما البدوي فاني اراه يركض اليهن . انه يبرك على الارض ... اراه يرفع التراب من الارض ويحشوه على رأسه . المسكين . لو اننا قتلنا النعجات لقتل هو نفسه . عملنا طيبا اننا تركنا له تنكة الماء .

وبدا الطريق العام ، الطريق الذاهب من دير الزور الى حلب ، كشريط اسود يتموج فوقه السراب في الظهيرة . عندئذ القى المعلم كرنيك السيكارة التي كانت بين شفتيه بعيدا . كان لها في لهاته طعم غبار هذه البادية المحرق ، وقال لمساعده :

— اعطني القربة يا مصلح ... احس باني اموت من العطش .

— ٢ —

المروحة الافقية تدور ، تدور بسرعة ، والمحرك يصم بضجيجه الآذان ، والهيلكوبتير تتجه بتؤدة تشبه البطء لتحوم فوق نهر الفرات . النهر يلتمع عن بعد كشريط من الفضة . وبينما كانت كف الملازم الطيار بدري على عصا القيادة كانت عيناه تتبعان المجرى من الغرب الى الشرق ، وهو يقرب من نظره فيبدو عريضا منسابا في

السهول مرة ، وضيقا محصورا بين ضفتين مرتفعتين مرة اخرى .

لقد قالوا للملازم بدري في القاعدة ، في حلب ، ان عليه ان يساير المجرى ابتداء من النقطة « ن » ، ليستكشف وليقوم بعمليات الانقاذ في الحوائج ، وهي الجزر التي عزلها الفيضان الطاغي عن شاطيء النهر . ولم يكن الملازم بدري بحاجة الى ان يتطلع الى الخريطة ليعرف انه بلغ النقطة « ن » ، فقد كانت منشآت مؤسسة جر مياه حلب على الشاطيء الجنوبي للنهر واضحة . فشغل عينيه بالتطلع الى جمال منظر الارض فيما دونه ، الممتدة بساطا اخضر حتى الافق ، زاهي الخضرة في القرب كامدها في البعد .

كان المنظر رائعا . ولروعة المنظر الذي كان يتأمل فيه الملازم بدري خطرت على باله خطيبته لمياء ... تمنى ان لو كانت الى جانبه لتتمتع بجمال ما تقع عليه في هذه اللحظات عيناه . في سهرة البارحة سألته لمياء عن سرعة الهيلكوبتير بالقياس الى سرعة الطائرة النفاثة . كأنها كانت تتمنى لو ان خطيبها كان قائدة طيارة مطاردة سرعتها تفوق سرعة الصوت . ولكن قائد الطيارة النفاثة هل هو الا آلة من آلاتها ، يكاد يفقد منعكساته الذاتية ونصيبه الانساني من التفكير والتأمل والتمتع ؟ اين لقائد النفاثة، اذا كان على مثل هذا الارتفاع المنخفض ، ان يرى ما يراه هو الآن من جمال الطبيعة في هذا الصباح وان يتمتع به ؟ لو كانت لمياء الى جانبه !... ولكن الذي كان الى جانبه مرافقه المساعد جميل ، فقال له الملازم بدري :

ـ نبدأ بالانخفاض بعد دقيقة واحدة . انتبه .

ـ حاضر سيدي .

وشد المساعد جميل يده على نهاية سلم الانقاذ دون ان يبعد وجهه عن زجاج منفذ النزول . وبدت لأعين الطيار ومساعده مياه الفرات، والهيلكوبتير تنخفض ، لا فضية لامعة كما كانت على البعد بل داكنة قريبة من الحمرة ، تتلاطم امواجها في سيرها السريع فتخدد سطح النهر بالاف آلاف الخطوط المتداخلة فيما بينها . اما الشاطئان فكانا خطين متعرجين يرسمان رؤوسا وخلجانا وتتشعب منهما بطائح وبحيرات تبرز منها ذرى الاشجار وسطوح المنازل الغارقة في الماء حتى فتحات نوافذها .

قال الملازم بدري محدثا مرافقه :

ـ هذه مسكنة على اليمين . وهذا تحتنا حبل البارك الفولاذي الذي تعبر عليه السفينة بين الشاطئين ، في غير هذا الموسم . هل ترى حويجة ما ؟

وادار المساعد رأسه في كل الاتجاهات ثم قال :

ـ حويجة ؟ تعني جزيرة ... لا اري شيئا . ولكن انتظر . هنا تحتنا عنزة . نعم عنزة ، على سطح بيت معزول وسط الماء .

فتناهض الملازم من مقعد القيادة وتطلع الى حيث اشار المساعد . كان هناك كوخ مستطيل محاط بالماء ، جدرانه من اللبن وسطحه محدب مستور باعواد وتراب . على قمة هذا السطح كانت تقف عنزة ، كذبابة سوداء في طبق المياه اللامتناهي . خفف الملازم بدري من سرعة مطيته وحوم حول الكوخ المعزول ، فأخذت العنزة ـ الذبابة تتحرك في مكانها من السطح الضيق كأن ضجيج الطير المعدني فوقها اثارها ، فقال المساعد جميل :

ـ انها تتململ في مكانها ... حركة اخرى وتسقط في الماء .

قال الطيار :

ـ لا تخف على المعزي . تستطيع واحدتها ان تقف اياما طويلة على رأس غصن مدبب . ما رأيك ... هل ننقذها ؟

قال المساعد :

ـ لو سمحت لي ، انزل وآتيك بها .

فضحك الملازم بدري وقال :

ـ لا اظننا نستطيع ان نكتب هذا في تقرير المهمة. ثم اني لا اظنها في خطر . التيار هنا ليس قويا ، وانما هي زيادة في النهر غمرت البيت . ارى هناك صف اشجار كانها في جزيرة ، لعلنا نجد فيها من هو محتاج الى مساعدتنا اكثر من هذه البهيمة .

وتقدمت الطيارة في اتجاه المجرى آخذة الى اليسار ، الى حيث كانت حويجة في وسط المجرى الام للنهر . من بعيد لم يكن يبدو منها غير قمم اشجار ضاحكة الخضرة ، ثم ظهر ان الاشجار كانت تخفي في شرقيها بيوتا هدم الفيضان بعضها ، وظل منها كوخان سالمين . وكانت تتصاعد من احد الكوخين سحابة دخان خفيفة ، فقال المساعد :

ـ في الاكواخ ناس . وارى نعجات بين البيوت على حافة الماء .

قال الملازم :

ـ وانا ارى دولاب حديد بارزا من الماء . هدم النهر بناء المضخة فلم يبق منها غير دولاب المحرك ظاهرا . هؤلاء بحاجة الينا ...

وبرز من احد الكوخين رجل مشمر الذراعين ، عاري الساقين ، يلف على رأسه كوفية ، زرقاء ، اخذ يشير الى الهيلكوبتير وهي تحوم فوقه وتنخفض . قال الملازم :

ـ اذا كان الرجل وحده لا داعي لان نحط . يستطيع ان يرقى السلم . واذا كان هناك اطفال فان امام الكوخ فسحة تكفينا للنزول .

قال المساعد :

ـ انزل انا اولا .

وفتح المنفذ فادلى السلم ثم انحدر عليه حتى بلغ الارض امام الرجل الذي كان في دهشة فرحة ، يكاد لا يصدق عينيه اذ يرى الجندي

الهابط اليه من الهيلكوبتير ، من السماء . واقترب الرجل من المساعد جميل وصاح بكل صوته ليسمع في ضجيج الطائرة الذي ملأ جو الحويجة :

ـ يا حيا الله ... يا حيا الله !

فرد المساعد :

ـ حياك الله يا أخ ... معك عائلتك ؟

اجاب الرجل :

ـ انا وحدي هنا . العيال ارسلتهم من ايام الى رأس العلو . كان معي مصلح ... مصلح العواد ماكينست الموتور . ولكن كما ترى : هدم الطوفان دار الموتور ، ومصلح عبر الفرات في حلة . بقيت وحدي هنا ... انا والنعجات .

واشار الرجل وهو يتكلم الى دولاب المحرك الذي بدا نصفه الاعلى ، فوق المحور ، على حافة الماء القريبة ، ثم الى النعجات الست التي كانت تحرك فكوكها تجتر غذاءها في بلاهة . كانت حافة النهر قريبة والماء ينحت في الشاطىء يأكل منه شيئا فشيئا . كما كان واضحا ان الكوخين والشجرات لم تسلم من الغرق الا لانها في مرتفع من ارض الجزيرة ، وان هذا لن يستمر اذا استمر الفيضان في ازدياد . وصاح المساعد جميل بالرجل :

ـ تعال يا عم . ارسلتنا الدولة لانقاذك . ايش اسمك ؟

ـ اسمي عبد الله .. عبد الله السليمان . الله يحفظ الدولة . تركبني بالطيارة ؟

قال المساعد، وبصوت عال دوما:

ـ نعم . اطلع على السلم يا عبد الله .

ـ انا والنعجات ؟

فضحك المساعد جميل من بلاهة الرجل وقال :

ـ النعجات لا مكان لهن . هذه طيارة لبني آدم . اطلع على السلم.

فهز الرجل رأسه اشارة الرفض وقال :

ـ طول الله عمر الدولة . نعجاتي ، لا ارحل بدونها .

صاح المساعد :

ـ انت مجنون . لا تضيع علينا الوقت . اركب معنا والا اخذك الطوفان ، انت ونعجاتك .

فهز الرجل رأسه من جديد في اصرار ، وقال :

ـ لو كنت اريد الرحيل بدون النعجات ركبت في الحلة البارحة مع مصلح . خذوها ، اجيء معكم !

قال المساعد :

ـ اي عقل هذا ؟ تخاطر بنفسك من اجل البهائم ؟ واذا زاد النهر وغرقت الحويجة ؟

ـ يدبرها الله . هي بهائم ، ولكنها نعجاتي وانا احبها . رح .. الله معك يا ابن عمي .

ـ فارتقى المساعد جميل السلم محنقا . وحين اخبر الملازم بدري بما يقول الرجل ضحك الطيار ومد رأسه يتطلع الى هذا الفلاح العنيد . قال المساعد :

ـ ما رأيك سيدي ؟ انقله لك بالقوة ؟

اجاب الطيار :

ـ ولماذا ؟ هو حر في ما يريد . قمة الجزيرة عالية فيما ارى ، وغدا لنا عودة ، فاذا وجدناه في خطر نزلنا اليه مرة ثانية . ربما غير رأيه غدا .

قال المساعد وهو يرى من مكانه في الهيلكوبتير عبد الله السليمان منحنيا على النعجات يلم بعضها الى بعض ، كأنه يحضنها بيديه :

ـ لا اظنه يغير رأيه . كأنه لا يريد ان يفترق عن هذه البهائم الا بالموت . من يصدق هذا ؟

فضرب الملازم بدري بيده اليسرى على اللوحة التي تحمل العدادات امامه وقال :

ـ ربما كان على حق . تصور ان طائرتي هذه مهددة بالضياع ... بالاحتراق ... بالسقوط .. هل تظن انه يرضيني ان يفرق بيني وبينها غير الموت ؟ وهذه كما ترى من معدن وخشب ، فكيف اذا كانت حيوانات اليفة ! الحيوانات مخلوقات لها روح يا مساعد جميل.

وحلقا من جديد طائرين في اتجاه المجرى واعينهما تتطلع الى الشاطئين والى الجزر المبثوثة في النهر . وتمنى الملازم بدري مرة اخرى ان لو كانت لمياء الى جانبه ... مكان المساعد جميل . ولكنه سيلقاها في هذا المساء . سيلقاها وسيحدثها بحديث هذا الفلاح الذي يتحدى النهر الطاغي، يتحدى الطوفان ، وينام في قلب الخطر ، لانه لا يريد ان يفترق عن الروح التي يحبها ... ولو كانت تلك الروح روح بهيمة لا تعقل ولا تعي .

ـ ٣ ـ

كان مصلح العواد مستلقيا على احدى بالات القطن المحزومة والمركة ، في العنبر رقم ٣ في المحلجة . وكان يلوك بين اسنانه عودا يتلهى به عن التدخين الممنوع في العنبر ، وهو يحدث رفاقه عمال الفرز الذين تجمعوا حوله في فترة استراحة الظهيرة .

وفي اثناء الحديث مرت زنوبة قادمة من الباب الخارجي ، فكأنما تسرب شعاع من النور الى العنبر المعتم الذي تملأه غبرة الحليج ، وتوقف مصلح العواد عن الكلام . ثم عبرت زنوبة الباب الداخلي الى عنبر البنات حيث تبدأ نوبتها في العمل ، فعادت العتمة في عين مصلح العواد ، وتسربت من بين اسنانه زفرة اطاحت بالعود الذي كان يتلهى به الى الارض . ولم تلبث الزفرة حتى تركت مكانها لابتسامة اضاءت شفتي مصلح . وقال العامل محمد طربيني احد زملاء مصلح في دوريته :

ـ وكيف يكون لك قلب ان تعبر الفرات وقت الطوفان في طنجرة

نحاس ؟

قال مصلح :

ــ ليست طنجرة يا ابن عمي ... هي حلة . الحلة قدر كبير مما يستعمله الناس ، على الفرات ، في طعام الولائم . اما رأيت الحلل الكبيرة التي يصنعون بها البرغل في حارة الصفا ، بعد باب النيرب، وانت داخل الى حلب ؟ الحلة التي ركبتها مثلها . طبعا ليس ركوبها امرا هينا ، ولا سيما اذا كان في النهر دوامات الواحدة منها تبلع الجمل . ولكن ماذا تريدني افعل ؟ ابقى في الحويجة مثل المجنون عبد الله السليمان ؟ ما ظل في الحويجة غيري وغيره . ولما هدم الفيضان الجرف واغرق موتور الرستون فما عاد يبين منه الا الدولاب لم يبق لي مقام . اما عبد الله السليمان فقال انه لا يترك الحويجة الا مع نعجاته الست . ذكرني بذلك البدوي الذي طلب منا ، المعلم كرنيك وانا ، ان نعفس نعجاته بالتراكتور لانه لا يريد ان يراهن يتعذبن بالجوع والعطش . هذا وذاك ، كل منهما قال انه يحب نعجاته . الحب شيء عجيب يا جماعة ! حاصله ... كان صعبا ان نحمل معنا بهيمة واحدة في الحلة. اقل حركة منها تغرقنا جميعا . وبقي عبد الله السليمان في الحويجة ، هو ودوابه . تدرون ؟ بعد ان ذهبت انا جاءت طيارة لتنقل من هو محصور في الحويجة فما رضي عبد الله السليمان ان يترك نعجاته للفيضان وحدهن . وحين نزلت المياه وعدت الى موتور الروستون رايت ان النهر لم يترك من الحويجة مكانا لم يأكله الا بقعة بسعة هذا العنبر ... كان عبد الله السليمان ونعجاته معسكرين فيها . لو استمر الفيضان نهارا آخر لكنا قرأنا فاتحة عبد الله السليمان ...

قال احد العمال الذين كانوا يستمعون لاحاديث مصلح العواد عن ذكرياته وهو معاون سائق تراكتور او ماكنيست لموتور مضخة على نهر الفرات :

ــ احمد الله يا مصلح على انك اصبحت عامل فرز في العنبر رقم ٣ في محلجة القطن هذه .. هنا لا الشمس تشوي جلدك ، ولا النهر يهددك بالغرق . معاشك مضمون ... تستلمه عدا ونقدا مساء كل خميس .

فحبس مصلح تنهدا كان يهم بالانطلاق من صدره ، وقال بدون حماسة :

ــ الحمد لله ... نصيب .

وسكت . في نفسه كان حنين تحرك باستعادة الذكريات التي قصها على اصحابه . حنين الى البادية الفسيحة الغبراء ، والى اعتلائه مقعده فوق التراكتور والسكك الفولاذية وراءه تشق اثلاما عميقة ، والشمس فوقه ترسل اشعتها نارا محرقة . حنين الى النهر المتلاطم الامواج، والى دقات محرك السقاية وهو يدير المضخة التي تصب الماء العكر في الساقية وتوزعها في مشارات القطن . اما هنا فانه في حبس . جدران المحلجة عالية وعنابرها مظلمة وهواؤها مشحون بالغبار ، ليس كغبار البادية الطلق ، بل غبرة مخنوقة تتجمع فيها اوبار القطن الدقيقة كأنها آلاف آلاف الديدان في ماء راكد عفن . عمل لا يطاق ، وجو لا يطاق ، لولا ... لولا زنوبة !

قام العمال من مجالسهم وتهيأوا للعودة الى العمل ، اذ قربت فترة الراحة على الانتهاء ، وبقي مصلح وحده مسندا ظهره الى البالة . كان في حديث مع نفسه : آه لو كانت زنوبة ذات العينين الضاحكتين والوجنتين الورديتين في وجه مدور ممتلىء ، وذات الصدر الناهد الذي يخطف بصره كلما مرت امامه مستعجلة الى نوبتها في عنبر البنات ... آه لو ان زنوبة هذه كانت معه هناك ! هناك ، وهو معاون على التراكتور مع كرنيك همبرسوميان ، او في الحويجة المعزولة وسط النهر مع عبد الله السليمان ! اذن لتعلق سعها باعلى شجرة من اشجار الحويجة ينعمان بمنظر الطوفان يجرف الاخضر واليابس من تحتهما ، ويتركهما وحيدين بين السماء والماء . سيخطبها ... سيخطبها نعم ، ويتزوجها ، زنوبة هذه ولو حكمت عليه بأن يتنفس الغبرة الخنوقة طول عمره بين جدران المحلجة المرتفعة والمظلمة ، هو ابن البادية الذي لا يطيق الا الفلاة الواسعة ولا تملأ صدره الا الرياح السافية . صحيح ان الحب شيء عجيب يا جماعة ...

وقام مصلح بدوره الى العمل . ما الذي تجديه احلام اليقظة هذه التي يحلمها عن زنوبة ؟ وقبل ان يتغلغل في احشاء العنبر رقم ٣ البعيدة ، المظلمة ، توجه الى الباب الخارجي المفتوح على حوش واسع مملوء بشلول القطن غير المحلوج ، مدثرة بالقماش المشمع ، وملأ رئتيه بنفس عميق . كأن ابن البادية الشاسعة الابعاد والنهر الجارف المتلاطم الامواه كان بهذا النفس يودع الهواء المشبع حرية وضوءا قبل ان يدخل جو المعمل ، جو المدينة الضيق ، حيث الراتب المقطوع والغد المرسوم سلفا ... حيث لا جدب ولا طوفان ، ولا فضاء طلق ولا بواد حرة ... وحيث الهواء المشبع بنسائل القطن تتلوى كالديدان في المستنقعات الآسنة ، والنور المتسلل خيوطا دقيقة الى الجو المعتم بالجدران العالية من الاحجار ومن الانظمة الدقيقة ... وحيث زنوبة !

الرقة ــ سورية عبد السلام العجيلي

الجليد

★

لا الخمر ترويه ولا السهر ... ظمأ كأن حدوده القدر
داويته فضجرت من جلدي ... وتركته فأجتاحني الضجر
حيران لا أدري بأي يد ... تتمزق الرؤيا وتنتشر
وتموت أشباح على صور ... وتطل من أشباحها الصور

***

تلك الحنايا في معارجها ... أشياء تعيا دونها الفكر
حاولتها فوقعت في ابد ... لا السمع يوسعه ولا البصر
واد كوادي الظن ، منحدر ... يهوي به في الظن منحدر
دوى الفراغ فكيف املأه ... ورسا الجليد فكيف انصهر
والنفس غرقى في مضايقها ... فكأنني في قاعها حجر

***

جمح الخيال وغار غورته ... وسرى الحداء فقلت ما الخبر ؟
او تشتهي الامواه رقتها ... او تشتهي افياءها الشجر ؟
تلك الغمامة أين منزلها ؟ ... تلك الخميرة أين تختمر ؟
تتخبأ الالحان في اذني ... حتى يفتق صمتها الوتر
هدأ الحنين فقلت : واعجبي ... ما الهمس، ما الانفاس، ما السمر
أترعت قلبي من مجامره ... وهجا فاخبي وهجه الحذر
جسدي ويا للسر في جسد ... يفنى ولا يفنى به الشرر
ريان في التحنان غصته ... عطشان يروي جرحه النظر
والثلج نار ليس يطفئها ... الا لهيب النار ينتشر

***

طال الطريق وطالت الحفر ... ونأى بنا في المنتهى السفر
وترنحت في البال قافلة ... ضاعت وضاع الحدو والاثر

الياس خليل زخريا

نــدره حــداد

بقلم شكر الله الجر

* * *

نجم من نجوم الرابطة القلمية في اميركا الشمالية وشاعر من المع شعرائها . وبعد سنين مثقلة باعبــاء الحيــاة والدنيا ، نفض قدميه من غبار الارض وراح يحلق على اجنحة قوافيه فحط في اعتاب جنةالشعر ينتظر الدخول اليها ، فقيل له : « ان الشاعر الذي لا اثر للمراة والخمرة في شعره لا يدخل جنة الشعر » ! فبكى المسكين وشل بيانه وارتجف عكازه في يده ..

ولكن كواحد كان من صفوة المرتلين في هيكل الفــن الجبراني الاكبر .. ترفقوا به فأدخلوه وطالمــا سمعــوه وهو على الارض يصلي صلاته ويشكو الى الله شكاته .

ذهب الشباب وكــل بهجتــه — فالعيش بعــد ذهــابه مــر
ورياضنا ذبلــت ازاهرهـــا — والروض دون ازاهــر قفــر
لا عــودة يــا نفس ناملهـــا — وامــامنــا درب المنــى وعــر
يا ويح اهل الشعر كم شبعوا — جوعا وكم سكروا ولا خمــر
لم يبــق الا الشعر نسكبه — دمعا الــى ان ينتهــي العمر

تمشي عيونك في ديوان « اوراق الخريف » لندره حداد فتقف من قصائده على جداول بلورية من روحــه الصافية وكانك تمشي في غابة من شجر اليــاسمين او حديقة من زهور البنفسج . فقد اكتفى الشاعر عن سائر الالوان في الشعر ببياض الصباح في الياسمين وكآبة المساء في البنفسج الحزين . فهو شاعر لا يعرف عربدة الكؤوس على موائد الشراب ولا صهيل الشهوات في اقبية الليل وقلما ترى شاعرا خلا ديوانه من المراة والخمرة كهذا الشاعر واذا لمحنا لهما ظلا في شعره فكما يمر خيــال الفراشة فوق الربيــع .

خرج شاعرنا ندره من مقاصب العاصي فتى طري العود ونزل على ضفاف الهدسن وبين خمائله الوارفة واطياره الهازجة اخضل عذاره وغرد هزاره فراح يسمعنا من انغامه في دنياه الجديدة الطف الاحاسيس واشجاها. شانه في ذلك شأن زميله رشيد ايوب في تنهدات قلبــه وصفاء لغته . وكلاهما من اعضاء الرابطة القلمية التــي كان شعارها بساطة التعبير في الاعراب عن خوالج النفس وفي مذهبها ان الشعر هو اغنية الحياة وجد بوجودها وعلى مقدار صفائها يكون صفاء الشعر وجماله ومــدى تأثيــره .

يــا نفس ليس النــاس الا — تــائهــين ببــاديــه
متفرقــين مضــوا وكــل — منهــم فــي ناحيــه
هــذا فتى ذو همـــة — يدنــي الامانــي القاصيه
هذا يلــذ لــه الركــوض — هــوى وراء الفانيــه
هــذا تطيب لــه السهــول — وذاك يهــوى الرابيــه
وسيتنهــون كمــا انتهــى — الشعــراء عنــد القافيــه

وهنا لا بد لنا من كلمة نقولها في الرابطة القلميــة اولى منائر الادب المشعة وراء البحار امتد نورها الــى سماء هذا الشرق فبددت الكثير مــن غياهــب الادب التقليدي في جوه فكرة واسلوبا . اذ كانت وحدهــا يومذاك حربا على القديم العقيم ، وانقلابا خطيرا فــي دولته ، تناول تأثيرها الناشئة في سائر الاقطار الناطقة بالضاد . وفي طليعتها البلاد التونسية ، فما لبثت ان اطلعت لنا من وراء نخيلها ومروجها الخضراء شعــراء نغموا انغام الرابطة وفكروا تفكيرها . وانك لتقرأ لابــو القاسم الشابي مقاطع من الشعر تشتعل اطرافها بالفكرة الجبرانية خيالا وحكمة كما تشتعل بالكآبة والوحشة .

فــلا الجــو يحمل ميت الطيــور — ولا النحل يلثم ميــت الزهـــر

وقولـــــه :

وتظــل ترقــص فــي جــوار — المــوت افــــراح الحيـــاة

ويصغي ابو شابي الى جبران عندما يقول :

« انا غريــب عن هذا العالم وفي الغربة وحشة قاسية .. »

فاذا به يثور ويصيح عن ألم مكبوت في زوايا القلب :

يا صميم الحياة كم انا في الدنيا — غريب اشقى بغربــة نفســي
بين قوم لا يفهمــون اناشــيد — فــؤادي ولا معانــي بؤســي

وله صورة جميلة عن الشاعر مع الناس وهي نزوة جبرانية طاغيــة :

جهــل الناس روحــه واغانيــه — فسامــوا شعــوره ســوم بخس

وانه ليطربنا حقا هــذا التأثــير الشامـــل بالادب الجبراني خاصة وادب الرابطة القلمية عامـــة ثم ادب العصبة الاندلسية في البرازيل . لعلمنا ان توحيــد المشاعر عن طريق الادب بين افراد الناشئة العربية هــو خطوةواسعة المدى في توحيد سواه من المشاعروالعواطف والاهــداف .

واذا قدر في الغد القريب لهذه الشعوب العربيــة المنتشرة على شواطىء المتوسط ان تتقارب وتتوحد على ضوء التفاهم والعمل المشترك فيكون الفضل ولا مشاحة عائدا الى وحدة شعورها الادبي والثقافي .. وهي مــن هذه الوجهة مدينة لتلك الحفنة من الادباء المغتربين وقد تسرب شعاعهم الى كل زاوية من زوايا العرب . فمــن مقالاتهم وقصائدهم الوطنية ، الى الرومنسية الى شعر الحنين والغزل والفلسفة الى كل شأن عالجته اقلامهــم من شــؤون الحياة مما شــاع في دنيــا العرب فنــور ارجاءها . والنفس العربية اشد النفوس تحمسا للشعر واهتزازا للقوافي ولا غروبذلك فلشعراء المهجر مبتكراتهم اللطيفة واساليبهم الجذابة تفتحت ورودا على خــدود الصحراء وانهمرت رذاذا منعشا على تربتها . واليك ايها

القارىء الكريم هذه الابيات لشاعرنا ندره حداد . يعاتب فيها الزمان ابناءه العاتبين ابدا عليه . وفيها لون من الوان الشعر المهجري الشيق الجديد .

في ليلة غاب عن جفوني ... الذ ما تشتهي الجفون
ذكرت قومي وحظ قومي ... فأستيقظ الشوق والحنين
رأيتني مبعدا واهلي ... عمن يحبون مبعدين
فرحت اشكو الزمان جبرا ... كانه الغادر الخؤون

وهنا تلفت الزمان الى الشاعر وقال له معاتبا : اكلما ساء حظكم يا بني الدنيا رحتم تعاتبون الزمان وتذمونه .. لا لا ايها الشاعر الاحمق انكم لمسؤولون عن انفسكم ولا بد للزمان بشؤونكم .

كل امرىء في الحياة رهن ... بما يسويه من مصير
لا يستوي خامل كسول ... وطامع حازم جسور
اكلما ساء حظكم ... قذفتموني بما يشير ؟

كم غادة في الشباب كانت ... رائجة ايما رواج
ابطرها الحسن فاستخفت ... بعاقل يطلب الزواج
مرت عليها السنون حتى ... تغير الوجه والمزاج
فاصبحت عانسا بقلب ... غادره الزهو والابتهاج
تطلب مني لها علاجا ... ومن اين لي ذلك العلاج

الى آخر ما في القصيدة من الوان العتاب والشكوى.

اجل لقد كان للبوق الذي نفخ فيه ادباؤنا في الشمال منذ خمسين سنة دويه المستحب . ولعل بعدهم عن اوطانهم واحتجاجهم وراء ضباب الغربة هو مما ضاعف من قوة صوتهم وزاد بتأثيرهم في نفس الناشئة العربية ، ناهيك بالبلد الذي اتفق وجودهم فيه ، وهو نيويورك ذلك البحر المزبد العجاج .. تتلاطم على شواطئه امواج الثقافات العالمية وتتوزع منه خلجات انباضها على الشعوب في عصر اصبحت فيه الانسانية وطنا واحدا للانسان مما يحتم على اديب اليوم ان يكون اشمل شعورا واعمق ادراكا واوثق اتصالا بالاسرة البشرية .

لقد هيأت الرابطة القلمية في عهدها الطريق الى شعراء اليوم فعلى هؤلاء ان يهيئوا طريقا اوسع لشعراء الغد لا سيما وجو الشرق العربي يكتظ بالتطورات ، وجو الانسانية ينذر بالمفاجئات ناهيك بتمخضات فكرية وعلمية تنبىء بولادة كون جديد يفرض على ادبائه ان يكونوا على مستواه .

ويسرني ان اقدم الى القارىء الكريم في ختام كلمتي عن الشاعر ندره حداد هذا الدستور التربوي في ابيات من خالص الشعر قال رحمه الله :

يا من يفاخر بالجدود ... كفى افتخارا بالجدود
ما الفخر بالنسب القديم ... ولو بهارون الرشيد
ما الفخر في فرط الغنى ... والسعي في جمع النقود
ما الفخر في سهر الليالي ... بين قانون وعود
الفخر كل الفخر في ... التهذيب والعلم المفيد
والعز كل العز في ... ادب الفتى منذ المهود
اليوم يفتخر الانام ... بكل مبتكر جديد
هذا زمان للنهوض ... فقد مضى عهد الجمود
علم صغارك ان يعيشوا ... في الحياة بلا قيود
علمهم الا يخافوا الموت ... في سبل الصعود
فالمهد فاتحة الردى ... واللحد فاتحة الخلود

جبيل – لبنان   شكرالله الجر

صراع

مثل الملايين العديده
أترقب البشرى السعيده
واغير الاثواب .. اختار الوشاه الجديدة
لا يشغل القلب الخلي سوى اماني زهيده
بيت واطفال وزوج ، قد تشاغل بالجريده
واروح احفظ غنوة واعيدها وانا وحيده
والحب مقسوم تخبئه ليالينا العنيده
وغداسيجمعنا الغرام .. وقصة تحكى فريده

يا للتفاهة اذ أفكر في الصغير من الامور
وبكم غدا سعر الخضار وما أجهز للفطور
وانظف الشباك ، أصلح من ملاءات السرير
أين الطموح واين احلام التفوق والظهور
والشعر يلهب جذوتي عند الضياع فاستنير
واروح فوق الشوك اعدو ، ما سئمت من المسير
وانا أرى قمم النجاح ، وغاية الحلم الكبير

كم كنت أهزأ بالمتاعب ، بالعراقيل الجسام
ولكم قضيت الليل أقرأ في الصحائف لا أنام
ومضى الزمان وجاء وقت ليس فيه سوى المنام
ويكاد يقتلني الفراغ، واستغيث من السقام

ربي لماذا صغتني نفسا جموحا شاعره
وجعلت دربي شائكا يدمي خطاي العاثره
وتركتني بين المتاعب والاماني الحائره
الشوق يلهب جذوتي بلظى الجمار الفائره

القاهرة   اخلاص فخري عماره



الدكتور محمد رجب البيومي

اثر الاندلس في الحركة العلمية بمصر

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد اذ كان النصر السياسي الذي اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة الى هجرة كثير من العلماء من شتى الاماكن شرقية وغربية الى القاهرة ، لان قيام الخلافة العباسية بها ـ ولو على وجه صوري ـ قد جعلها تاخذ مكان عاصمة الرشيد ، فيهرع اليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففي كل حي مسجد، ولكل مسجد اوقاف واحباس ، وله مدرسون وطلاب ، وكتب واوراق، وكتب التاريخ تحصى هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معا، وتفيض في ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه من فقه وتفسير وحديث ونحو وصرف وبلاغة واصول وقراءات ومنطق ، كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول في الدين واللغة ، ومنهم الفزنوي والصقلي والمصري والمدني والعراقي والآمدي والاربلي والمقدسي والشامي والخراساني والمغربي والطوسي والنابلسي تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطباعهم الا انهم في نظر الحكومة المصرية اذ ذاك علماء مسلمون يؤدون اشرف واجب في اطهر مكان ، لهم واجب الرعاية والاجلال وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب !

وقد كانت الاندلس احد هذه الجداول التي تصب في محيط القاهرة ، اذ كانت الرحلة من المغرب الى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفي الراحلين من يرتشف ويرجع ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ، وقارىء نفح الطيب يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافا صارخا بعلم المشرق واساتذيته ، ويطول بنا القول لو عرضنا لاشهر مشاهيرهم فضلا عن عامتهم ، ولم تكن الرحلة الى مصر والاقامة بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك بل كانت من يوم ان فتحت الاندلس ولكن العصر المملوكي بالذات قد كتب له ان يشهد مغرب الاندلس وما سبقه من ارهاصات منذرة توحي بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك الى ضرورة الرحلة وجذب علماء الاندلس الى مصر ، فلاقوا رحبا فسيحا وسهلا مريحا ، ووجدوا أهلا باهل واخوانا باخوان .. ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالاقامة في دمشق دون مصر فقد كانت مؤلفاتهم تطير الى القاهرة سريعا لتلقى نصيبها من الرواج فهم عنها غير بعيد كابن مالك ومحيي الدين ، واذا كانت الثقافة الاسلامية متقاربة متشابهة تاخذ منحى واحد في التاليف والصياغة وبخاصة في عصور التقليد والمحاكاة ـ الا ما ندر من افذاذ امائل يعدون عدا ـ فقد يصعب علينا ان نبرز تاثير الاندلسيين في الثقافة العربية المصرية اذ ان مؤلفاتهم في الاعم الاغلب نسخ متشابهة من مؤلفات اخوانهم سواء من رحلوا مصر من المشرق او من رحلوا اليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الاندلسيين بارزا في فروع خاصة من فروع الثقافة العربية اذ ذاك لان جهدهم كان من الذيوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رزق من الحظوة والاقبال ما جعله بارزا جهيرا يشير بتأثيره ، واذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا في كل علم تقريبا ، فان من هذه العلوم ما تأثر بتآليفهم تأثرا واضحا بل منها ما كاد ان يصبح وقفا على دراساتهم ، هم أهله واصحابه ، ولا يستغرب القارىء ذلك، فعلم القراءات مثلا يكاد يكون اندلسيا اذا نظرنا الى الكتب التي سبقت الى تسجيله ، ثم افاضت في شرحه ، وسنبدأ بايضاح ذلك فنقول ...

لئن كانت القراءات سبعا او عشرا مشرقية ، فان التاليف فيها لم ياخذ سبيلا علميا ممتدا على نهج شارح الا عند الاندلسيين، وسبب ذلك ان بعض جنود المنصور بن ابي عامر كان مثقفا عالما بالقراءات ثم ولى امارة داينة والجزائر الشرقية فبذل جهده في نشر هذا العلم تقربا الى الله واشباعا لرغبته العلمية فنفقت لديه سوق القراءة ـ كما يقول ابن خلدون ص ٤٣٧ من المقدمة ـ وظهر لعهده أفذاذ دونوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاءل جواره ما سبق ان كتب عنه شرقا وغربا ، وابرز هؤلاء الافذاذ هو الامام ابو عمرو عثمان بن سعيد الداني صاحب كتاب « التيسير » وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالاندلس رحل الى المشرق وتخصص في العلوم الدينية اذ ألف في الحديث والفقه والتفسير والقراءات تاركا مائة وعشرين مصنفا كما يقول مؤرخوه ، واحدها كتاب التيسير في القراءات السبع وقد نشره العلامة « برتزل » احد اعضاء لجنة النشرات الاسلامية لجمعية المستشرقين الالمانية سنة ١٩٣٤ ، وصدره بمقدمة جيدة اشار فيها الى منزلة علم القراءات من العربية والاسلامية ! وهي منزلة عالية نحتاج اليوم الى تأكيدها اذ وقر في اذهان بعض المثقفين لدينا في هذا العصر ان هذا العلم وقف على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط ، وفيهم أميون حفظوه دون ان يفهموه ! وهذا خطأ واضح ، لان علم القراءات في العربية هو علم الالقاء في معاهد اوربا يتحدث عن مخارج الحروف ومميزات الاصوات ووسائل النطق الصحيح ! ولو قدر له ان يأخذ دوره الطبيعي في التطور لاصبح ذا اثر هام في اعداد الخطباء والمذيعين بعد ان توضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن ، فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين او متجاهلين ! بل ان الازهر نفسه هو وراث علم القراءات لا يضعها الموضع المناسب ، اذ جعل قسم القراءات وهو ملحق بكلية الدراسات العربية لا يستمد طلابه من حملة الثانوية الازهرية بل ممن يحفظون القرآن من العامة ، واكثرهم لا يعرف شيئا ما عن قواعد النحو والتصريف ، واكبر الظن انهم يكتفون هناك بحفظ الشاطبية مع الاشارة الى بعض رموزها .. اما الاستاذ برتزل المستشرق الالماني فيرى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله في مقدمة الكتاب ـ بتصرف ـ .

« ان البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجهها

الصحيح لتتيسر تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه كان من ابلغ العوامل في عناية الامة بدقائق اللغة العربية الفصحى واسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد ان القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك ان الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين في علم القراءة كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو ، فعلى كل من يتصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التي تتناولها كتب النحويين واللغويين والمفسرين ان يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع في درس معاني القرآن واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التي يجدها امامه دون التفات الى غيرها فقد أغفل أمرا ذا بال » .

أصبحت الاندلس اذن مركزا اساسيا لدراسة القراءات في ديار الاسلام ، ونشأ من ابنائها من سبقوا الى التأليف فيها عن دراية واحكام حتى نبغ القاسم بن فهيره بن خلف الشاطبي وكان كفيفا منذ مولده فانصرف الى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والادب وكان قوي الحافظة لدرجة تستغرب بحيث اصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخاري ومسلم اذ تليت عليه من حفظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة ، وكان عزيز النفس بعيد الهمة عرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع في بلدته فانف وتأبى ، لان الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء في الخطبة الثانية وهم ظلمة لا يجوز ان يذكروا بالخير في مثل هذا الموقف الجليل ، فاظهر الرغبة في الحج، ونزح الى مصر ، وسمع بالاسكندرية على الحافظ السلفي ثم عين للاقراء في مدرسة القاضي الفاضل بالقاهرة ، وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة فبلغ شاوا بعيدا من العظمة والمهابة حتى كان الناس يزدحمون في حلقته ازدحاما يصل الى التشابك والتناحر حرصا على الدنو من مكانه ! وقد ترك فيما ترك منظومته الشاطبية التي يتناقلها الناس الى الان مكبرين مرددين وقد قال عنها ابن خلكان: لقد ابدع فيها كل الابداع ، وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ولا يشتغل بالقراءات احد حتى يحفظها .. وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان الى وقتنا ، حتى رأينا اكثر قراء الريف المصري يحفظونها ويسعون جاهدين الى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ الف الشاطبي منظومته وهي عمدة التأليف في هذا الفن وقد كتبت عليها شروح مستفيضة على توالي العصور نذكر هنا بعضها لنشير الى اثر هذا الاندلسي الجهير في ازدهار هذا العلم وانتشاره ، فأول من شرحها تلميذه ابو الحسن السخاوي بشرح اسماه فتح الوصيد في شرح القصيد ، ثم ابو شامة المقدسي في كتابه ابراز المعاني وبرهان الدين الجعبري في مؤلفه كنز المعاني وشروح اخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبي وجلال الدين السيوطي وشهاب الدين القسطلاني ونفر غيرهم لا يحصون ، اشار الى بعضهم حاجي خليفة في كشف الظنون !

كما قام باختصارها ابن مالك النحوي في قصيدته حوز المعاني في اختصار حرز الاماني وقام باكمالها احمد بن علي المحلي شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير فاذا قلنا ان علم القراءات كاد ان يكون اندلسيا وان اثر الشاطبي بمصر في هذا الفن كان من الخلود والذيوع بالمحل الاول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبي باخت لها في النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة في بابها وهي الفية ابن مالك الاندلسي المسماة بالخلاصة ! فقد كان لها من التأثير العلمي منذ العصر المملوكي الى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوي اخر ، ولم يكن ابن مالك مجددا في علمه ، ولكنه ضابط ومقيد وشارح ، لان كتاب سيبويه في النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل اصبح اماما يرجع اليه ، وهاديا يستنار به ، وقصارى المؤلفين من لدنه ان يلموا بموضوعه او يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله ! وقد عرف باسم (الكتاب) لجلاله ! وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظاما واجلالا ، وقد رحل ابن مالك من الاندلس الى دمشق وهي يومئذ تحت سلطنة المماليك فسمع الحديث بها واخذ العربية عن غير واحد واعتمد في قراءة كتب الاقدمين على نفسه ، وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الاندلسي نزيل مصر أيضا وصاحب التآليف الذائعة الجهيرة في النحو والتفسير واللغة والقراءات ! وقد الف ابن مالك كثيرا ، وعارض الشاطبي بمنظومة في القراءات قال فيها :

ولا بد من نظمي قوافي تحتوي ... لما قد حوى حرز الاماني وازيدا

فمن بين مؤلفاته الفوائد والتسهيل وسبك المنظوم وشرح مقدمة الجزولي وشرح المفصل ، وعدة اللاحظ والتعريف وشواهد التوضيح لمفصلات الجامع الصحيح ومن بين منظوماته الكافية الشافية في ثلاثة آلاف بيت ، ونظم الفوائد ونظم لامية الافعال والاعلام في مثلث الكلام! أما منظومته الخالدة فهي الخلاصة المعروفة بالالفية ، فقد اذاعت ذكر ابن مالك على مدى الاحقاب وخدمت بالشروح والحواشي والتقريرات! ولذلك كان تأثيرها العلمي بارزا يذكر للاندلس ، وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفي المتون النحوية نظما ونثرا افضل منها ، ولكن البحث هنا عن الاثر والتأثير ، والثابت المشاهد ان ألفية بن مالك تركت دويا صاخبا في دنيا الشروح والتآليف لم يتركه متن نحوي آخر ، ومن شراحها السيوطي وابن الناظم وابن عقيل وابن هشام وابن الصائغ واكمل الدين البابرتي ، وناظر الجيش الحلبي وعبد الرحيم الاسنوي! هذا غير الحواشي المستفيضة التي كتبت على كل شرح والتقريرات الهامة التي ألحقت بكل حاشية ! وكلها تدور حول الفية بن مالك ! وقد نظمت ألفيات اخرى لغير ابن مالك ولكن لم تحظ بمنزلتها ، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغاتها اثر في ذلك ، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الاخرى تشاركها هذا الوضوح ولم تحظ بمعشار ما حظيت به مما يدل على ان الاشتهار حظ مقسوم ، ولئن كان الشاطبي وابن مالك كلاهما محافظ يقلد في تأليفه ، وناقل صائغ في نظمه فاننا لا نبحث هنا عن الابتكار ، ولكن نشير الى التأثير وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية في مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من امثال ابن مضاء ! فوجب ان نشير الى دورهما الكبير في الثقافة العربية فلا نبخس احدا فضله في ميزان التقدير .

واذا ذكر تأثير الاندلس في مجال ما من مجالات التأليف العلمي بالعصر المملوكي وما لابسه من قبل ومن بعد ، فلا بد ان يذكر التصوف ، اذ ان الاندلس قد أمدت المشرق بنفر كبير من اعلام المتصوفين قادوا حركات روحية واسعة ، وشقوا شعابا رحيبة ، وتركوا مذاهب وآراء ومؤلفات ، بل ان بلدة واحدة بالاندلس هي مرسية امدت الشرق بأفذاذ المتصوفين الذين رحلوا اليه فشغلوا به وشغلوه ، وحسب مرسية ان يكون من نجبائها ابو العباس المرسي ومحيي الدين بن عربي ، وابن سبعين ! وكل واحد من هؤلاء أمة واحدة ! ومن الطريف ان اثر أبي العباس في مصر كان مضادا من وجهته الصوفية لاثر محيي الدين بن عربي ، ولكن كليهما قاد جماعة وجدد دراسة وحدد اتجاها ، واحدث تأثيرا ، ولايضاح ذلك عن ابي العباس المرسي نذكر انه كان تلميذ أبي الحسن الشاذلي وترجمان أفكاره ، وجامع صحابه ، واستاذ حلقته ، وخليفته من بعده ! لم يترك ابو العباس مؤلفات قائمة بذاتها ، ولكنه ترك اقوالا تنبىء عن معدنه ! وقد جاء دوره بعد ان عمت آراء الغزالي في التصوف واصبح الفقهاء من أهل السنة متصوفين بعد ان كانوا حربا على الصوفية ! وصار الاحياء كتاب تصوف اخلاقي يهدي السبيل الى الله بعيدا عن شطحات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ! يقول صاحب نفح الطيب عن ابي العباس ان قبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعاء وقد زرته مرارا كثيرة ودعوت الله عنده بما ارجو قبوله ! ولو رجع المقري اليوم

الى الحياة لوجد مسجد أبي العباس أعظم مسجد بالاسكندرية ولشاهد من تعظيمه وتبجيله في القرن الرابع عشر الهجري ما شاهد قبل ذلك حين التمس القبول لديه !! وقد ظهر أثر أبي العباس العلمي في مجالسه الوعظية من ناحية وفي مؤلفات تلميذه الكبير ابن عطاء الله السكندري من ناحية ، اما مجالس وعظه فما حفظ لنا المقري منها في نفح الطيب يدل على ذوقه ولطافة حسه . وقد شرب التلميذ ابن عطاء الله السكندري من روح استاذه ، واصبح من المتعسر الشديد تمييز كلا الانتاجين ونسبته الى واحد منهما ! وقد احدثت حكم ابن عطاء الله دويها الشديد فكانت مجال الشرح والتفسير والدراسة منذ تأليفها الى الان ، حتى كان المفتي الاكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي يلقي دروسه بجامع الحسين في رمضان شارحا لها ومفسرا ، هكذا يقول الدكتور زكي مبارك في التصوف الاسلامي ، والشيخ بخيت فقيه كبير يحفظ اقوال الفقهاء في مذهب ابي حنيفة ولكنه كما تشهد مؤلفاته لم يكن ممن يستطيعون السبح مع ابن عطاء فكيف جاز له ان يتخذ من حكمه مجالا للدراسة والتفسير ! من يدري لعله اعتمد على شرح الرندي او الشرقاوي او ابن عجية او احد شروح الحكم وهي كثيرات مختلفات !

لقد كان من آثار ابي العباس وتلميذه ابن عطاء بعد الغزالي ان أصبح علماء الفقه ينتسبون الى طريقة صوفية يحرصون على ذكرها عند التعريف بهم ، فيقولون مثلا فلان المغربي المالكي الاشعري الشاذلي ! ومعنى ذلك ان الطريقة الصوفية وجدت اتباعها من بين اعلام الفقه والتشريع ! بل ان كثيرا منهم من يتحدث في مؤلفاته الفقهية عن العبادات والمعاملات والحدود ثم يختمها بأبواب صوفية تتصل بالمريد وآداب السلوك !! وقد ظل ذلك متداولا حتى العصر الحاضر اذ رأينا الشيخ محمد امين الكردي النقشبندي سنة ١٩٠٨ يكتب مؤلفه تنوير القلوب فيفرد للتصوف صفحات تؤاخي صفحات على التوحيد وفصول العبادات والمعاملات ! وهذا امتداد بعيد لتأثير الغزالي وابي العباس

اما محيي الدين بن عربي فقد احدث تأثيره الصوفي في الدراسات المملوكية بآرائه الخطيرة في وحدة الوجود اذ ان تصوفه الفلسفي قد قاده الى مضايق حرجة تهتف بالثوائر ان تهب على عقيدته ! فافردت مؤلفات كثيرة لشرح افكاره ما بين مؤيدة ومعارضة ! ومات الرجل والصخب لا يكاد ينقطع حوله في كل قرن ، حتى اضطر الشعراني ان يحذف من كتبه فصولا كثيرة يعتقد انها مدسوسة عليه لانها لا توافق ما عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين ! ومن المسلم به انه على اختلاف القوم في اتجاهه قد امتع التصوف بادب فذ فريد حتى قال عنه الدكتور زكي مبارك في التصوف حـ ١ ص ١٧٩ « انه راض اللغة على الجري في شعاب مجهولة وانطلق يتحدث عن فروض غيبية جلاها قلمه في معارض شائقة فاصبحت وكأنها من الحديث المأنوس ! لقد هضم كل ما قرأ ووعى كل ما سمع ، وراح يهدر في لغة قوية عاتية لا يعيبها غير ما كان يقصد اليه احيانا من الغموض » .

لقد ظل العصر المملوكي مشغولا بابن عربي ، فالفتاوى توجه للفقهاء عن معتقده ، والمؤلفون يخطون الكتب في نقده تارة وفي الدفاع عنه تارة ، واظهر من حمل لواء الدفاع عنه سراج الدين البلقيني وجلال الدين السيوطي وعبد الوهاب الشعراني .

ولا بد من كلمة في مجال تفسير القرآن ، عن مؤلف اندلسي هام كان فريدا في اتجاهه اذ ان التفسيرات الذائعة لعهده وما وليه لم تكن على غراره ، كان هناك مجلدات تفسيرية بعضها مطبوع واكثرها مخطوط لابن عربي والعز بن عبد السلام وابن ظفر الصقلي وسبط بن الجوزي وناصر الدين الجزامي والقفطي وابن كثير والعليمي ولكنها لا تغني غناء تفسير القرطبي ! اذ كان ذا منحى خاص يضيف الاقوال الى قائليها ويضرب عن كثير من قصص المفسرين واخبار المؤرخين ويفصل آيات الاحكام تفصيلا شافيا ويوضحها بمسائل تسفر عن معناها وترشد الطالب الى مقتضاها في اسلوب سلس لا يصدمك بالاصطلاحات العلمية او التخريجات النحوية والصرفية او التمحلات البلاغية مما يغشي البيان القرآني بضباب يحول دون اجتلائه اشباعا لرغبة مفسر قارىء بحاث ! وهو لا ينقل نصا ما دون مناقشته كاشفا وجوه القول عما يجوز للمفسر ان يبديه من الرأي المؤيد بالحجة وما لا يجوز ان يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية، ذاكرا ـ ما دعت الحاجة ـ نصوصا وافية من احاديث الرسول واقوال الصحابة ومشيخة التابعين وائمة الرأي في الاسلام ، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن وكيفية التلاوة وما يكره منها وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه والقراءات السبع ومصحف عثمان ! ولعل دار الكتب المصرية لمست الحاجة اليه في هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعا في اجزاء قدر لها ان تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئه المعاصر لا يشعر انه يقرأ في تفسير سابق كتب في عهد بعيد ولكنه يجد من قرب التناول واشباع الفكرة ويسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ووفرة النصوص والشواهد ما يجذبه الى متابعته !

واذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فان ميزة القرطبي الاولى هي اهتمامه بالاحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهي خاص ! كما نقل كثيرا من آراء ابن عطية الاندلسي ، وهو مفسر خطير ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه الا اجزاء مبتورة في دار الكتب المصرية وقد اثنى عليه ابو حيان وقال عنه انه اجل من صنف في علم التفسير وافضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير ! فكأن القرطبي قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام في الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ ! وتلك احدى مزايا النقل الكثير في عهود الوراقة والمخطوطات !! وقد قدم القرطبي الى مصر وعاش بالصعيد الاوسط في منية ابن الخصيب ، دون ان تغره اضواء العاصمة بل انقطع للعبادة والتاليف في معزله الهادىء ! واذا كانت الايام قد حجبت تفسيره كثيرا عن التداول فانه الان بعد ان طبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب ، قد جاء بدعا بين قرنائه حتى ليعجب القارىء لتاليف مثله في منهجه الرائع واطراده السهل واستقصائه المطمئن في عصر يعج بالاعتراضات اللفظية وتزدحم تفسيراته بالقصص الاسرائيلية ! وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد !!

هذه اشارات موجزة الى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد ، وبجوارها اخوات كثيرات لائمة الاندلسيين الذين قطنوا المشرق في شتى فروع الثقافة الاسلامية ، ولكننا لم نشر الى احد منها عامدين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعا وتقليدا فلا يجوز ان تندرج في موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة ، بطابعها المتميز او بذيوعها المشتهر المتعالم ، ونمثل لها بمؤلفات المرسي السلمي في التفسير واشهرها ري الظمآن في تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الاجزاء ، ومؤلفات ابي حيان الاندلسي المتنوعة في النحو والتفسير وهي من الشهرة بحيث يستغني عن الاشارة اليها وابن القطاع الصقلي في العروض والادب والتاريخ وابن ظفر الصقلي في اللغة والنحو والادب وعلم الكلام وابي بكر الطرطوشي صاحب كتاب الفتن وسراج الملوك في السياسة والمختصر في التفسير وحامل لواء السنة في محاربة المستحدثات من البدع ! ولا نريد ان ننقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا في هذا المجال ، بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفائس ! وهي قيد المتناول !

هذا نمط يسير من القول في تأثير المقيمين بالشرق من الاندلسيين في الثقافة العربية ، اما لو اردنا الالمام بتأثير الافذاذ من غيرهم كابن حزم واضرابه فما اظن القلم يستطيع ان يقف عند حد ! وحسبنا الان ان نذكر للاندلس اسهامها في انعاش الحركة العلمية والادبية على ضفاف النيل زمنا غير قصير !

الفيوم ـ دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

وديع البستاني - جبرا ابراهيم جبرا

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - وديـــع البستانــي

في الدبية بقضاء الشوف بلبنان ، موطن البستانيين ولد « وديع » وأكمل دراسته الابتدائية ومنها انتقل الى « مدرسة سوق الغرب » واجتمع فيها بالشاعر الشيخ فؤاد الخطيب .. وبعد ان نال الشهادة الثانوية انتسب للجامعة الاميركية في بيروت ونال شهادة بكلوريوس في الاداب والعلوم سنة ١٩٠٧ ودرس فيها العربية والفرنسية مدة سنتين . وفي عام ١٩٠٩ هجر التدريس ليتولى منصب كبير المترجمين في القنصلية البريطانية ب « الحديدة » من اعمال اليمن . وما لبث ان ترك عمله السياسي في الثغر اليمني وقصد القاهرة ليعمل في وزارة الاشغال العامة وشرع في حركة النقل من اللغة الانكليزية الى اللغة العربية ، واول آثار عربها مؤلفات اللورد ايفبري الاربعة وهي :

(١) معنى الحياة (٢) السعادة والسلام (٣) مسرات الحياة (٤) محاسن الطبيعة . وفي هذه الآثار الاربعة يرى اهل الحكمة وذوو العقول النيرة (دستورا) ينبغي تطبيقه في حياتهم اليومية .

وفي عام ١٩١١ بارح « وديع » القاهرة الى لندن لدراسة « رباعيات الخيام » في مكتبة المتحف البريطاني . وفي مطلع عام ١٩١٢ نشرت « دار المعارف » بالقاهرة الطبعة الاولى من هذه الرباعيات مترجمة الى العربية بقلم « البستاني » على طريقة السباعيات الموشحة فكان بعمله هذا اول ناقل لهذه الطرفة العالمية الشهيرة وقابلها أهل القلم في دنيا العرب بالتقدير والاهتمام ، حتى ان المرحوم جرجي زيدان لم يذكر في كتابه الشهير « تاريخ (آداب اللغة العربية) الا تعريب « الياذة هوميروس » و « رباعيات الخيام ».

وفي عام ١٩١٢ قصد البستاني (١) الهند وسلخ فيها مدة عامين ضيفا على الشيخ عبد الرحمن آل ابراهيم ملك اللؤلؤ العربي وزار شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور واقام في ضيافته وعرض عليه ما نقله من شعره الى العربية .

« وفي عام ١٩١٤ عاد « وديع » الى القاهرة لكن اتفق ان الباخرة التي ركبها من سيلان كانت المانية ، وهنا دخلت بريطانيا الحرب العالمية الاولى ، فاعلنت الاحكام العرفية على الباخرة ، وكانت تتلقى الاوامر من الطراد الالماني « كونز برغ » ، وبعد ٢٥ يوما نفد وقودها فاستسلمت في جزيرة موزمبيق الى الحلفاء ومنها انتقل المترجم له الى عاصمة المستعمرة البرتغالية في شرقي افريقية ، حيث عرف نفسه الى القنصل البريطاني بمذكرة مسهبة ، فدعاه القنصل الى اجتماع كانت نتيجته التفاهم الصريح على ان يتاح للبستاني الدخول الى أراضي الاتحاد الافريقي ، فيكون هو وكل سوري مشمولا بحماية فرنسة او بريطانيا او روسيا ، وذلك في حالة دخول تركيا الحرب . وعلى أساس هذا التفاهم اتصل « وديع » بقنصل تركيا في جوهنزبرغ وانتقل الى الترنسفال حيث اقام مدة سنتين » .

وفي ربيع عام ١٩١٦ بارح البستاني الترنسفال الى مصر ليشغل وظيفة في وزارة الداخلية ، وفي خريف عام ١٩١٧ عين مساعدا مدنيا للكولونيل باركر (ابن شقيقة اللورد كتشنر) وكان المدير العام الاول لبلاد العدو المحتلة (فلسطين) وأول مدني بريطاني اجتاز سيناء بالقطار العسكري مصحوبا باربعة موظفين من العرب اختارهم في القاهرة ليكونوا في عداد الجهاز المدني ، وقبل ان يبارح « وديع » القاهرة الى فلسطين نصحه صديقه الشيخ انطون الجميل باشا برفض المنصب الذي عين فيه لعلمه بنزعته العربية فكان جواب وديع : « سأذهب الى فلسطين لادافع عنها ومن ورائها لبنان ! » .

وحققت الايام نبوءة البستاني فلقد شقي في مقاومة الصهيونية خلال عمله في حكومة فلسطين واستقال اثنتي عشرة مرة وكان اخرها عام ١٩٢٠ بعد ان نفته السلطات البريطانية الى بئر السبع لتدخله باضراب عام .

وطلق وديع الخدمة الحكومية واقبل على مزاولة المحاماة والعمل في الحقل الوطني واحتفظ بالمستندات والوثائق الرسمية على امل ان يضع مذكرات تشمل أهم الاحداث التي وقعت في فلسطين (١٩١٧ - ١٩٤٥) وسعى الى تأسيس « الجمعية الاسلامية المسيحية » التي تحولت الى « اللجنة التنفيذية العربية » واخيرا أصبحت « الهيئة العربية العليا » .

وفي عام ١٩٢٣ انتخب وديع عضوا وسكرتيرا للوفد العربي الفلسطيني الذي قصد لندن لمفاوضة بريطانيا في ايجاد حل للقضية الفلسطينية . ومضى البستاني يعمل بجد واخلاص في الحقل الوطني ويدعو الى الوحدة الوطنية ونبذ التفرقة الدينية ، واكثر من الحض على وحدة المسلمين والنصارى العرب ، ونظم قصائد في بعض حفلات « المولد النبوي » وفي احداها أنشد :

لئن عدد الاديان نـاس ومزقوا   فما كنت في الاوطان الا موحـدا

وكاشف وديع النصارى العرب بان المستعمر لا يبالي بالدين ولا يقيم وزنا له الا بقدر ما يفيد منه ويؤمن مصالحه في مستعمراته ، وكان شاعرنا صريحا الى ابعد حدود الصراحة .

وهاك البستاني ان يحرم الفلاحون العرب من اراضي الجفتلك بغور بيسان ، فانبرت مساعيه لتثبيت اتفاقية هذا الغور التي تنص على تمليك اثنتين وعشرين قرية وعشيرة من تلك الاراضي التي كانت بعينها موضع صفقة كبرى (٢) اراد انور باشا بيعها من شركة الكارن كايمت اليهودية لكن نسيبه المرحوم سليمان البستاني (معرب الالياذة ووزير الزراعة والمعادن في العهد العثماني) عارض في التوقيع على قرار مجلس الوزراء القاضي ببيع اراضي بيسان من الصهيونية . وازاء اصرار انور باشا على البيع استقال الوزير العربي وقال للصدر الاعظم : « ... تعين وزيرا غيري فيوقع ! » لكن انور خشي مغبة هذا القرار فمزقه ولزم الصمت مكرها .

وفي عام ١٩٣٠ درس وديع الحقوق في معهد الحقوق الفلسطيني بالقدس وتمكن ببراعته وغيرته على مصالح امته العربية من تفويض مئات من الدونمات الى مزارعين من العرب يقطنون غور بيسان وبذلك حال دون تسربها الى الصهيونية .

واثارت الثورة الفلسطينية التي شب لظاها عام ١٩٣٦ في نفس شاعرنا عاطفته وهيجت احساسه ومست الوتر الحساس من نفسه ففاضت شاعريته بقصيدة قومية بلغت ابياتها ١٠٧ أبيات وقد تميزت ببراعة الاستهلال ، وخصب الخيال ، ودقة الوصف ، ومتانة الرصف ، وبلاغة العبارة ، وحسن التعبير والاشارة ، وقد وجه فيها النداء الى ملوك العرب وامرائهم ، مستنهضا هممهم للاخذ بناصر فلسطين والذود عن حماها وشد أزرها في جهادها الاكبر . ومن تلك الخريدة العصماء قولـه :

الله أكبر بعـد اليـوم ان غضبوا   خطب يعم ولـما يغضب العـرب
بالعز ما أكلوا بالعز مـا شربوا   سبعون يوما على الاضراب قاطبة

والسعي للرزق والاوطان في خطر   بقي وفي الذود عنها الغنم والطرب
بذل وجود بارواح ومـا ملكت   يد الفقير الى ان قيل قد نكبوا
ثار الشباب وثار الشيب قبلهم   والصبية احتشدوا للحرب ان لعبوا
وللنساء بلاء في معامعها   وقد اميطت ولما تنزع الحجب
ينفون أحرارنا نفيا اذا نسبوا   والنفي آنق ما أولاهم الادب
ويسجنون وقد ضاقت سجونهم   ويدفنون وكادت تزحف الترب
ويهدمون لتجميل مساكننا   هدم القلاع وقد راقتهم الخرب
والغاز والماز يبكون العيون وما   تبكي ومنها شرار البأس تنسكب
وقل لهم اننا نفدي القتيل متى   نبكيه والموت دون الفوز مطلب
نحن القليل متى يحصى لنا عدد   نحن الكثير متى ننمى وننتسب
قالوا وقلنا ولما أيقنوا كتبوا   وقد غدونا وما قالوا ولا كتبوا
قد كذب الغدر صدقا من معاشرنا   وبالصدق تولى أمره الكذب

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية وسقوط حيفا في أيدي القوات الاسرائيلية في نيسان ١٩٤٨ اضطرب حبل الامن اضطرابا شديدا دفع السكان العرب الى النزوح لكن البستاني وزوجته قررا البقاء في دارهما ، وما زالا فيها بعيدين عن أولادهما الاربعة وفي ذلك يقول :

من دون (اربعتي) ما الدار بالدار   تبا لربع من الاحباب مقفار
قد كنت بيتي والاولاد فيك وقد   أمسيت صنعة بناء ونجار
بالامس فردوسنا الارضي عن ثقة   واليوم لا كنت الا طعمة النار
يا دار، أين غدت(ليلى(٣)) واخوتها   اغدو ، وانت على سكانك انهاري

ولم تقف محنة شاعرنا عند هذا الحد ، فما غابت شمس ٢٣ نيسان سنة ١٩٤٨ حتى أطبق على داره ثلاثون من منظمة الهاغانا اليهودية ، فاحتلوا خمسا من غرفها احتلالا تمادى شهرا كاملا ، وما خرجوا منها الا في ٢٢ ايار ، ليبيت شاعرنا في « البرج » فاضرب عن الاكل وعن الشرب وعن النوم ، وفي ذلك يقول :

حبستم حرا لا تلين قناته   عروبية ان راح يعجم عودها
أبى زادكم والماء والنوم انها   حياة هوان عندكم ، لا يريدها
كفتني ستوني عزيزا بامتي   وعيشة مثلي فضلها ، لا مديدها
تمادت بي الايام حتى رأيتكم   حكمتم ، فيوما واحدا لا أزيدها

ولم يذهب هذا الاضراب (الثلاثي) سدى ، لانه انتهى باطلاق سراحه ، لكنه ما وطئت قدماه أرض داره الباكية الا وهو يزم حقيبة كبيرة ضمنها « المهبراته » مخطوطة وبعث بها خفية الى بيروت وهو باق في بيته على شاطيء البحر ، ينظر الى لبنان فيرى « جبل الشيخ » ويقول :

(جبل الشيخ) بعيني ناهض   وأنا الشيخ على الشاطي ركودي
أرسل الطرف الى ذروته   ولدى البحر قيامي وقعودي
أصحب النسكين شعري والهوى   عربيا بين آلاف اليهود
شت اولادي ، ديوان المنى   وبهم الحقت ديوان الهنود
كل ما عز وما أحببته   كل ذخري من طريف وتليد
كل ما صرت وما أملته   في يد المجهول من خلف الحدود
وباولادي يومي وغدي   وبحي الشعر بعشي وخلودي
لم يدع لي الدهر شيئا في يدي   غير قلب الصب يهفو من بعيد

وانتابت الشاعر البستاني حالة نفسانية مؤلمة وهو سجين داره في ظل حكم يهودي بغيض ، فراح يخاطب ياسمينة غرستها « ليلى » وحيدته أمام قصر والدها في حيفا المطل على البحر المتوسط :

يا ياسمينة « ليلى »   يا سلوتي في نواها
نورت لي بسمات   ضحاكة في لماها
ملات بيتي أريجا   عطريه من شذاها
بوركت يا غرس نبتي   نورا يحاكي سناها
زيدي نضارة غصن   احدوثة عن صباها
زيدي جمالا وحسنا   حتى كأني أراها
بالرفق أجتنيه زهرا   ولا حرمت جناها
كأنه ثغر « ليلى »   اللولو ينور فاها
يا ياسمينة ، « ليلى »   كل الليالي فداها
من قبل شوقي قيس   ما قال الا عناها
وطاب شعري نسيبا   هلهلته في هواها
وفي هوى « أم ليلى »   وما عشقت سواها
يا ياسمينة ، اني   سبحت فيك الالاها
وكان قلبي عنه   ضل السبيل وتاها
هذا زمان أضاعت   فيه الرجال حجاها
فتلك أمة « ليلى »   خطب الخطوب دهاها
فسل الشعوب تنزى   مستعليا وعلاها
يا ياسمينة « ليلى »   خلي السما ونداها
فارض أمة « ليلى »   انا أروي ثراها
هذي دموعي اشربيها   ولو شواك لظاها
ويوم تسأل « ليلى »   قولي : أبوك بكاها
ولا تلم فيك « ليلى »   الا الحزين أباها
هذي جناية حر   لم يدر كيف جناها
غنى العروبة عمرا   وعاش حتى رثاها !

وفي شتاء عام ١٩٥٣ عاد وديع الى لبنان فاغتنم حملة الاقلام فيه صدور « المهبراته » الطرفة الهندية الرائعة مترجمة شعرا بقلمه وتنادوا الى تكريمه . ومساء السبت الموافق ١٦ أيار ١٩٥٣ أقيمت حفلة تكريمه في قاعة اليونسكو ببيروت وحضرها كبار رجال الدولة والصحافة وخطب فيها نفر من اعلام الادب والفكر منوهين بالمكانة التي يحتلها هذا الشاعر الفحل والناثر البليغ . وفي ختامها قلده رئيس الجمهورية اللبنانية وسام الاستحقاق المذهب ، ثم وقف المحتفى به والقى القصيدة التالية :

حسبي في الهند أمة يقظانه   نبهت كل مقلة وسنانه
انه الشرق بعد تجديد « غندي »   جدد الدهر عهده وزمانه
عل « غندي » من غيثة (المهبراتا)   بعد نهل من كوثر (الراميانه)
برهميا ، من أمة الفكر والروح   أتانا ، لا برهمي كهانه
رام للهند ، من سديم ، كيانا   فيه أضوى حتى الفناء ، كيانه
حكمة الهند للخلود اجتلاها   شاعر ، حنك النهى شيطانه
أيها الحافلون بالشعر حولي   يا رعى الله فيكم مهرجانه
انه شعر شاعر هندوي   فاحمدوا سحره ، له ، وبيانه
لست للشاعر المخلد الا   شبه ظل ، للضاد أدى الامانه
أنا حسبي ، في المهرجان ، هناء   انني هاجر قضى هجرانه
هاجر اكثر الطواف ودوى   جاعلا نصب عينه (لبنانه)
جاور الحد ديدبانا ولما   يعلم الحد من غدا ديدبانه
وأمر الانكاد في العيش، ان الجار ،   يخشى من جاره عدوانه
ساء فأل الحر المرابط لما   قلب الطرف ما رأى شجعانه
أقفر الحي حوله فهو باك   بعد « ليلى » ، مقبل جدرانه
فاستوى سادرا يطوي حشاه   كاظما في ضلوعه أشجانه
وذرى الارز والربى بعلاها   لم تبارح خياله وعيانه
صدق القارئان لله فينا   ذاك انجيله وذا قرآنه
وطني جنتي على الارض حتى   يفسح الله في السماء جنانه
وطن الفكر والثقافة لبنا   ن ، ان عد شرقنا أوطانه
شاء لبنان ان يكون منارا   يملأ الخافقين نورا فكانه
أمراء البيان ، في الحي ، مرحى   أيكم ، ينتدب ، يكن سبحانه
أي عقد من الغوالي فريد   قد ضفرتم من حول جيدي ثمانه
جل هذا الصنيع عندي جميلا   يحمل القلب ، للمدى ، عرفانه

من آثاره المطبوعة : عاش البستاني حياته بين الكتب والقراطيس وهام بها الى حد نسيان نفسه والذهول عن وجبات الطعام ، حتى غدا ، كما يقول الاميركيون في أمثالهم ، « دودة كتب » . وفيما يلي

اسماء كتبه المطبوعة :

(١) معنى الحياة : شعر ونثر (معرب) ١٩١٠.

(٢) السعادة والسلام : شعر ونثر (معرب) ١٩١٠.

(٣) مسرات الحياة : نثر (معرب) ١٩١١

(٤) محاسن الطبيعة : نثر (معرب) ١٩١١

(٥) رباعيات عمر الخيام : شعر (معرب) ١٩١٢

(٦) رباعيات الحرب : شعر بالانكليزية ١٩١٦

(٧) البستاني (رابندرانات طاغور) : شعر ونثر (معرب)١٩١٧

(٨) بطريركية اورشليم الارثوذكسية : بحث تاريخي وقانوني.

(٩) الانتداب الفلسطيني باطل ومحال : بحث في السياسة والقانون الدولي ١٩٣٦

(١٠) The Palestine mandate (بالانكليزية) ١٩٣٦

(١١) ديوان الفلسطينيات : شعر ١٩٤٦

(١٢) خمسون عاما في فلسطين : نثر (معرب) ١٩٤٧

أما آثاره القلمية المعدة للنشر فهي :

(١) رباعيات أبي العلاء : شعر (بالانكليزية)

(٢) الراميانه : ملحمة معربة شعرا (أدب هندوي)

(٣) نالا وداميتي : قصة معربة شعرا (أدب هندوي)

(٤) كليلة ودمنة : شعر ونثر (معرب)

(٥) شاكنتلا : مسرحية ـ شعر ونثر (معرب)

(٦) موجز الاساطير الهندوية : نثر

(٧) الفيته (النشيد الالاهي) : شعر ونثر (أدب هندوي) (معرب)

(٨) عمر الخيام : شعر ونثر ـ دراسة للرباعيات ومراجعها

(٩) رسالة في الالف والهمزة والياء : دراسة لغوية صرفية

(١٠) مجاني الشعر : شعر

(١١) ذكرى الفراق : شعر

(١٢) الى ذي عبقر : قصائد وحواش مهداة للشاعر شفيق معلوف .

نموذج من شعره الملحمي : اقدم البستاني على ترجمة « المهبراته » الملحمة الهندوية الشهيرة ، وكبرى الملاحم العالمية شعرا عن الانكليزية عام ١٩٥٢ . وفي هذه الترجمة طاول القمة ، ودونك مقطوعة (ديباجة) من ذلك الشعر المعرب :

حديث الشعر عن حرب الحياة ... تخلد بين أمسك والغداة
روته للزمان المهبراتا ... كما أثر الحديث عن الثقات
دريتا رشتري الاعمى وبندو ... أخوه من بني القمر الاباة
وبين بنيهما الفتيان حرب ... تخبر عن درو بادي الفتاة
بنو الملك الضرير ، مليك كورو ... على طول المدى قرن العتاة
لدات اخوة ، مئة لام ... ليوم واحد عجب اللدات
وخمسة اخوة أبناء بندو ... سماويون في النسب البراتي
وسادسهم اخ ـ سر خفي ... الى حين ـ كاسرار البنات
وان اغنى عن الاصلاب مغن ... لدى نسب فصدق الامهات
وعمهم ابن جارية ، فدورا ... سري دأبه دأب السراة
ومن جديهم عزب بتول ... بشيما الحي ، قهار المات
وجد خالد غنى المواضي ... قوافيه الاوابد والاواتي
فيازى جامع الصحف القدامى ... ولي الشعر ، راوية الرواة

(١) كوثر النفوس ص ٣٦٣ و ٣٦٤ بقلم ملحم ابراهيم البستاني .

(٢) اطلب تفصيل ذلك في كتابنا « البستاني والياذة هوميروس » .

(٣) هي كريمة الشاعر البستاني .

٢ ـ جبرا ابراهيم جبرا

من ابرز سمات هذا الاديب الموهوب تأثره بوليم شكسبير الشاعر الانكليزي وتفاعله معه في حياته وأدبه ، حتى أصبح نتاجه مشبعا بروح هذا الشاعر العالمي ، ويدل نتاجه كذلك على احاطة شاملة بثقافة هذا العصر بأوجهها الانسانية الكثيرة .

ولد جبرا ابراهيم جبرا في بيت لحم بفلسطين عام ١٩١٩ وغادرها مع اسرته الى القدس حيث تلقى دراسته في «الكلية العربية»، وقصد بريطانيا في بعثة علمية على نفقة ادارة المعارف العامة لحكومة فلسطين ، ودخل جامعة اكستر ثم جامعة كمبردج وعاد يحمل منها شهادة الماجستير في الادب الانكليزي ، وعين استاذا لهذا الادب في « الكلية الرشيدية » بالقدس .

وبعد حلول النكبة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) قصد بغداد وكان احد اساتذة الادب الانكليزي في كلية الآداب بجامعة بغداد لبضع سنوات ، وبعد ذلك ذهب الى الولايات المتحدة وانتسب الى جامعة هارفرد في زمالة دراسية للنقد الادبي ، وفي عام ١٩٥٤ عاد الى بغداد والتحق بشركة نفط العراق في منصب اداري ، وظل محاضرا في جامعة بغداد حتى عام ١٩٦٤ .

عالج « جبرا » القصة القصيرة والرواية والنقد والشعر ، وهو يكتب بالانكليزية ، ويقبل على رسم اللوحات الزيتية ، وقد اشترك في طائفة من معارض الرسم وله لوحات فنية رائعة .

و « جبرا » كاديب واسع الاطلاع له نظرات عميقة في النقد يبحثها في كتابيه « الحرية والطوفان » و « الرحلة الثامنة » ويجمع في نقده بين الشعر والقصة والمسرحية والرسم ويبرز الصلات القائمة فيما بينها . وقد شارك في حركة التجديد في الفكر العربي المعاصر ، وخاصة في قضايا الشعر والنقد والقصة . وامنيته الغالية ان يرى روايات المعاصرين والسابقين البارزين في العالم تنقل الى العربية ، وقد نقل احداها بنفسه وهي « الصخب والعنف » لوليم فوكنر . ومن ناحية المسرحية يصر الاستاذ جبرا على ضرورة ايجاد مكتبة كاملة منها في اللغة العربية ابتداء من اسخيلبوس الى كتاب المسرحية المعاصرين . ولم ينس ان ينقل الى العربية مأساة « هاملت » لشكسبير فاجمع النقاد على أنها أروع وأدق ترجمة عربية لهذا الاثر العالمي .

من آثاره القلمية : زود الاستاذ جبرا الخزانة العربية بطائفة من الكتب الادبية والدواوين الشعرية ، وبعض كتاباته ترجم الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية . ودونك اسماء ما وقفنا عليه من آثاره المطبوعة :

(١) صراع في ليل طويل (رواية) مطبعة العاني ، بغداد١٩٥٥

(٢) عرق وقصص اخرى، المؤسسة الاهلية، بيروت ١٩٥٦ (اعيد نشره بعنوان « المغنون في الظلال »)

(٣) تموز في المدينة (شعر) دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠.

(٤) الحرية والطوفان (دراسات نقدية) دار مجلة شعر بيروت ١٩٦٠.

(٥) Hunters In a Narrow street (رواية) هاينمان ، لندن ١٩٦٠.

(٦) Art In Iraq To day ، لندن ١٩٦١

(٧) المدار المغلق (شعر) ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤

(٨) الرحلة الثامنة (دراسات نقدية) ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧

(٩) قصص من الادب الانكليزي المعاصر (مترجم مع مقدمات)، بغداد ١٩٥٥

(١٠) أدونيس (أحد اجزاء « الغصن الذهبي ») (مترجم) للسير جيمز فريز ، دار الصراع الفكري ، بيروت ١٩٥٧

(١١) هاملت لشكسبير (مترجم) ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠.

(١٢) ما قبل الفلسفة ، لهنري فرانكفورت وثور كيلدجاكسون وجون ولسون ، (مترجم) دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٠.

(١٣) وليم فوكنر (مترجم) المكتبة الاهلية ، بيروت ١٩٦١

(١٤) روبرت فروست (مترجم) المكتبة الاهلية ، بيروت ١٩٦١

(١٥) الاديب وصناعته ، لعشرة نقاد امريكيين (مترجم) مكتبة منيمنة ، بيروت ١٩٦٢

(١٦) الصخب والعنف ، لوليم فوكنر (مترجم) دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٣

(١٧) آفاق الفن ، لالكساندر اليوت (مترجم) دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٤

(١٨) البير كامو ، لجرمين براي (مترجم) ، بيروت ١٩٦٧

(١٩) ثلاثة قرون من الادب (في ٤ اجزاء) دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥

وفي ربيع عام ١٩٦٧ ظهرت في منشورات Oxford University Press بلندن مجموعة من القصص العربية بعنوان Modern Arabic short stories وقد نقلها من العربية الى الانكليزية المستشرق الانكليزي دنيز جونسون‌ديفز ، وكان في عدادها قصة بقلم الاستاذ جبرا

نموذج من نثره : يعتبر الاستاذ جبرا كاتبا موهوبا ، ويشهد له نثره بحس اسلوبي رهيف ، وعمق في النظرة لا تجده الا عند فئة من الكتاب الافذاذ ، ونثره قسمان : قصصي ونقدي ، وفيما يلي نموذج من نثره النقدي :

« قال ولتر باتر في اواسط القرن الماضي : « الفن هو فك أزمة الصراع » وسواء أكان هذا الصراع سياسيا ام اجتماعيا ام نفسيا ، فانه المميز الاهم في فن الرواية :، رغم المدارس المختلفة التي نشأت حوله . والقضية قديمة قدم الاغريق ، غير انها انتعشت من جديد بزوال القرون الوسطى وتفكيرها ، فقد تمثلت النزعة الانسانية حينئذ بالمفكرين والكتاب والعلماء الذين زعزعوا النظام «الهايراركي» القديم ، وهو النظام الذي يظل فيه كل شيء (أو فرد) في منزلته مبنيا على شيء (او فرد) أحط منه ، حسب ترتيب لا يمكن للانسان ان يخرج عليه . وهو ينطبق على المجتمع الانساني (من الامير نزلا الى الشعب ، او من البابا نزلا الى الرعية) ، كما ينطبق على النظام الكوني (متمركزا في الارض ، والشمس والقمر والكواكب في درجات تدور حولها) .

ولكن كما قال « غاليلو » ان النظام الفلكي لا مركز له (مما اثار نقمة الكنيسة عليه فاكرهته بتهديده بالحرق ، على « سحب كلامه ») هكذا اوحى « مكيافلي » و « مونتين » وغيرهما بان الانسان أيضا حر لا مركز له يدور حوله . وهكذا نشأت فكرة تحرر الانسان (وبالتالي وحشته) التي تطورت من تاملات « مونتين » في الانسان الى كتابات الثوريين الفرنسيين .

وبضعف الوازع الذي ينص على بقاء الانسان في منزلته ، تصدع النظام القديم ، ونشأت الطبقة الوسطى وازدادت خطرا وشأنا ، وكان لها اثر بعيد المدى في تطور الفنون ، لاختلاف نظرتها عن نظرة الارستقراطية الى الحياة .

وما كاد القرن الثامن عشر يقارب النهاية ، حتى علت صيحات الرومانسيين يدعون فيها الى الحرية والفردية والعدالة الاجتماعية . وكانت الصفة الاساسية التي امتازت بها آداب هذه الفترة وما تلاها هي (الوعي) ، الوعي بالذات ، الوعي بامكانات النفس ، الوعي بقوى الحياة . وهذا الوعي هو الذي جعل (الشعور) يوازي التفكير، والحدس (او النظرة الداخلية) يوازي التعليل ، والخيال يوازي العقل ، بل يزيده أهمية . والوعي بالذات ـ كما يقول اودن ـ يحدو بالمرء الى طلب اختبارات الحياة بخيرها وشرها . وهذا الوعي هو الذي جعل « الشخصية » في المسرحية او الرواية اهم من «الحادث» (مما وجه عناية الروائي الى اظهار ما لكل حادث من اثر في تنمية الشخصية) . وبعد ان كانت مآسي شكسبير تعظم لما في حوادثها من عرض للحياة ، جعل النقاد يعظمونها لما فيها من شخصيات تتمثل فيها الحياة . واذا اخذنا ابطال بعض المآسي ، كهاملت ومكبث وبروتس واوثلو وكوريو لانس ولير ، وجدنا ان القاسم المشترك الاكبر بينهم هو ما في حياتهم من نزاع رهيب ، اما في أنفسهم (كما في هاملت وبروتس واوثلو ومكبث) او بينهم وبين القوى المتألبة عليهم (كما في لير وكوريو لانس) بل ان في شخصية معظمهم يلتقي نوعا هذا النزاع.

ولازدياد خطورة الفرد في نظر الرومانسيين غدا انعتاقه واجبا عليه . والانعتاق منطو على ضرورة الصراع بينه وبين التقاليد الموروثة والاحكام القائمة ، ولكن تحتم عليه ان يطلب الانطلاق انتصارا للانسانية ، ولو كان في انطلاقه موت أكيد .

كان قادة الحركة الرومانسية مزيجا من الارستقراطيين وافراد الطبقة الوسطى . وبنهوض هذه الطبقة بدأ انحطاط الطبقة الارستقراطية . وقد اوجدت هذه الحالة في الرومانسية اتجاهين ادبيين ، تطور كلاهما منفصلا عن الاخر ، وما زال يتطور حتى الآن . فان الارستقراطيين ، اذا أحسوا بالتداعي في بنيانهم القديم طفقوا يحنون الى عصر كان النظام فيه ثابتا وكانوا هم فيه اسيادا ـ وذلك هو العصر الوسيط ـ فظهرت روايات من ضرب الفانتزي (الخيال الحالم) مفعمة بالقصور والقلاع ، والفرسان والنبلاء المتنكرين ، والمكايد الجنسية المعقدة ، تطورت فيما بعد الى روايات تاريخية كروايات ولتر سكوت ودوماس وغيرهما ، او الى نوع من الادب الفانتزي الجنسي قد تسميه بالادب الرمزي . واشد اثر للرمزية نجده في الشعر الحديث ، ولكننا نجده احيانا عند بعض الروائيين الكبار ـ لا سيما من بدأ منهم حياته الادبية كشاعر ـ امثال جيمز جويس في « يوليسيز » ووليم فوكنر في « الصخب والعنف » و د. هـ. لورنس .

اما الاتجاه الاخر الذي نشأ من الوعي الرومانسي ، فكان الاتجاه الذي سار فيه أبناء الطبقة الوسطى ، وهي الطبقة التي تجسد الارستقراطيين وتتطلع الى النجاح المادي وتعظمه ، ويهملها ـ كما قال فرانك اوكونر ـ (الامانة) اكثر مما يعنيها (الشرف) فكان هم كتابها ان يصوروا الحياة (كما هي) ليتاسوا سير ابطالهم وتقلبات ايامهم في رحلتهم الاجتماعية ، ويرسموا نهوض الاسر وسقوطها ، لاسباب أخلاقية او روحية ، ضمن الاطار المادي الذي لا نجاة منه .

ومن هنا نشأ الادب « الواقعي » وهو ادب تلعب فيه المادة ـ او الدراهم ـ وعادات المجتمع دورين خطيرين متكافئين . فلكل انسان مكانة اجتماعية يعينها دخله المالي ويتصرف بموجبها . وقد تلتبس عليه مظاهر الحياة ، وينسى نفوذ المال وخطر العادات في تقليب أوجهها ، فيقع ضحية خلط الوهم في الواقع ، او يعجز عن تفريقهما فيعيش خارج نطاق المجتمع ، متصورا نفسه أسمى منه ، بينما يعده المجتمع غير لائق لان يكون واحدا منه . والجزء الاكبر من أحسن الروايات التي ظهرت بين ١٨٥٠ و ١٨٨٠ من هذا القبيل .

ولما طبقت فرنسا وانكلترا قانون التعليم الاجباري ، وفي اواخر القرن الماضي ، ظهر في ميدان الادب كتاب من طبقة الفقراء والعمال. فكان انصرافهم الى تصوير الحياة في الدركات الدنيا ، حيث يرى الفرد الحياة من الاسفل ، بين مشاهد من القبح والفقر والقذارة ، وركزوا جهدهم في لفت النظر الى ما في الحياة من شظف ومرارة وكفاح ، وكان أدبهم امتدادا للواقعية ، ولكنه امتداد نحو ما قسا عليه المجتمع ، نحو الجانب المظلم المنسي ، وسمي « بالطبيعة » .

ولئن كان اميل زولا أبا لهذه الحركة ، فان الروائيين الامريكيين

القادم الغريب

أكان ما نعيشه افتراء ؟
وكل ما نحمله انطفاء ؟
يا ليت لو لم يفضح الرياء
لو انه يعشي خطانا مرة اخرى بلا انتهاء !
لكنما ، تكسر الطلاء
يا عرينا تشرد الشراع ، والبحار
مغلقة ابوابها الكثار
من اين لو يضمنا قرار ؟
من اين غاب الليل والنهار ؟
اذ نحن مصلوبان مشدودان لا اسار
لا موت لا انحدار
دوامة دارت ... ودارت ، سلها اصفرار

متعبة وجوهنا يشلها العثار
فلنجمع الوجوه من حيائنا المعار
عما قريب يسدل الستار ..
وهكذا النزوات صدقنا
وحينما ...
حبل من الاعذار وشينا
شباكنا الموصود ، اوصدنا
في وجه وجهينا ،
والقادم الغريب – يا غريبة – منا
من قلب قلبينا ...

لندن — سامي حداد

في هذا القرن هم أحسن من يمثلونها ، امثال درايز وارسكين كولد وبل ، وجيمز فارل ، وهمنغواي وغيرهم كثيرون . وقد نشأ معظمهم فقراء ولم يحظوا بدراسة كافية (فعلموا أنفسهم بأنفسهم) ، ولم يشعروا بكثير من التهيب ازاء تقاليد اللغة او اخلاق المجتمع ، فكتبوا رواياتهم باسلوب منطلق كثير الحوار بالعامية ، ترصعه الشتائم والصراحات الجنسية ، ويعج بالعنف والجنس مصورين بذلك (الجانب الاخر) من الحياة حيث لا بد للفقير، في عالم صناعي مادي، من حيوية ملتهبة وفظاظة مكشوفة اذا اراد البقاء » .

نماذج من شعره : يحمل شعر الاستاذ جبرا الوانا جديدة تطل، للمرة الاولى ، على الادب العربي ، وتحمل تجارب اسلوبية جريئة . ويعتبر ديوانه « تموز في المدينة » جزءا من مرحلة جديدة يتخطى فيها الشعر العربي القيود القديمة ، ويؤكد ديوانه اللاحق « المدار المغلق » على هذا الاتجاه نفسه . ودونك بعضا من شعره :

شبح في ضياء البدر سرى
بين الدوالي ، وجهه
أبيض كالقناع ، يداه
كفرعين مورقين ترتفعان
الى الجدران ، نحو الطريق ، الى
بيت صمتت ارجاؤه المظلمات –
لا الايام تقيه ، ولا الموت ،
هوى السارية في ضياء البدر ، على
شفتيها رغم القناع غناء
كالهواء يهب ، نحيب .
لست أنا ، بل الدنيا هي التي تنتحب

– ٢ –

عاصفا كالريح جئت
أصفر بين الخرائب
خلال الأشجار والحجارة
بين المباني القديمة ونوافذها
كعين بعد عين
ترنو الى بيد الشوارع –
كالريح في ليل ماطر
بعد لواهب التراب
والاماسي العواقر
أصرخ من هوجاء حبي
أشق الاشجار والخرائب والشوارع
برماح من مطر –
جئتك يا موت جئتك ،
خذها بين عينيك مني ،
أنا فارس الفوارس
وجندك نمل تحت عقبي
أرهب الاطفال بنار شدقيك !
ولئن ارهبت أهل المدينة
بالسحب الغضبى من منخريك
وشحذت لهم انيابك البخراء
في طلب العذارى
فلن ترهب الريح التي جئت فيها
منقضا على عظامك الحشفاء :
جئت كالف رمح
أصرخ للشمس من ولهي
، وفي صدري ألف حب وألف ألف حياة !

عمان – الاردن — البدوي الملثم

السد والتلال

بقلم جورج سالم

قصة

لم يلحظ س .. ان هـذا الصباح المشرق يختلف عن سائر الاصباح التي مرت به . ومع ذلك فقد كان يسيطر عليه ، وهو منطلق الى عمله، شعور بالضيق والقلق ، فسار بخطى مسرعة الى مكان عمله خوفا من ان يصل متأخرا .

ولكنه ما ان قطع عشرات الامتار، وخرج من الشارع الذي يقيم فيه حتى بدا له ان نور النهار المتلألىء قد اخذ يتعكر شيئا فشيئا ، وقدر ان الشمس التي كان وهجها يلمع في صفحة السماء قد تغطت ببعض الغيوم فلم يأبه بها ومضى يغذ السير . ولكن العتمة ما لبثت ان ازدادت ، فما كان منه الا ان التفت الى خلفه يتطلع الى الشمس التي كانت قد غمرت اسطح المنازل وبدأت تتسرب الى غرف المباني حين غادر المنزل ، فاذا هي قد احتجبت ولم يبق لها اثر في السماء ، ورأى من بعيد جدارا اسود عاليا يسد الافق خلفه ويفصله عن الشمس ، ومع انه دهش لهذه الظاهرة التي لم ير لها مثيلا من قبل ، الا انه تابع مسيره . وقال في نفسه : سأعرف ما هذا الجدار فيما بعد ، حين ابلغ مكان العمل ، ولا شك انني واجد عند رفقائي تفسيرا له ، اما الان فموعد العمل قد ازف واراني ما ازال بعيدا لما ابلغ مكان عملي بعد . وازدادت العتمة فتريث س .... قليلا يبحث حوله ، فاذا الجدار الاسود الذي كان بعيدا عنه قد اخذ يقترب منه ، فجرى مسرعا وهو يلتفت وراءه . كان الجدار يتقدم نحوه بسرعة وكأنه يقتفي اثره ، فما كان منه الا أن اطلق ساقيه للريح ، زائغ النظرات لا يلوي على شيء ، حتى نسي عمله ومكان عمله ، وظل يركض مبهور الانفاس حتى بلغ ارضا جرداء لم يسبق لقدميه ان وطأتاها . وتوقف هنيهة يسترد انفاسه ويمسح العرق الذي سال على جبهته ، وادرك ، دون ان يستدير الى الخلف ، أو يرفع راسه الى فوق ، انه محاصر وان هـذا الجدار قد طوقه فلم يعد باستطاعته النكوص او التراجع او الهرب ، وان عليه اذا اراد النجاة ، ان يسير الى الامام ليتقي هذا السواد المحدق به ، وشعر باضطراب وضيق يأخذان بخناقه ، وتساءل في نفسه : ماذا يريد بي هذا الجدار؟ ولماذا يطاردني؟ والى اين ؟ وغفل عن كل ما عداه ، وتبددت من ذهنه كل الصور والمشاغل وسرعان ما احس بصلابة الحجر في ظهره فادرك ان الجدار قد حاذاه ، واصبح وراءه مباشرة ، ومد ذراعه ، دون ان يلتفت الى الوراء ، يتحسس ما خلفه ، فوقعت يده على حجارة ملساء قاسية صلبة، فأسند ظهره اليها فاذا هي تدفعه في حركتها المستمرة ، وتطلع الى الامام فوجد سهلا كبيرا يمتد من هذه الارض الخاوية فقرر ان يسير بخطا مستقيمة الى الامام ، وليكن ما يكون ، فما كان له ان يتوقف لحظة واحدة بعد الان . فقد احس بانه مهدد بأن يسحقه الجدار الذي خلفه سحقا ، وازدادت العتمة التي حوله وانطفأ نور النهار انطفاء يكاد يكون تاما .

وكان س .. من الفزع بحيث يستطيع ان يسير الى ما لانهاية غير شاعر بما يحدث لـه او مبال به . فاطلق العنان لساقيه يندفعان بسرعة فائقة في هذا السهل ، وكان يركض لا يلوي على شيء ، اما حين كان يتوقف ليستريح ثانية او ثانيتين فقد كان الجدار بحجارته الملساء يدفعه بقسوة وعناد فيتابع جريه . وظل في ركضه هذا برهة لا يستطيع أن يحدد كم امتدت ، الى ان بدت له التلال . وكان ظهور هذه التلال مفاجأة بهرته وحيرته . اما كيف ظهرت ومتى ظهرت ومن اين جاءت فانه ليعجز عن الاجابة عن تلك الاسئلة جميعا . وخيل اليه ، الى حين ، ان ما يراه ليس الا وهما ناتجا عن شدة تعبه ، عن تعب قدميه اللتين اخذتا تتورمان خاصة . وومضت في ذهنه فكرة مفاجئة : لماذا لا يحتمي بهذه التلال من الجدار ؟ لماذا لا يضيع بين ثنياتها فتعجز هذه الحجارة الصلبة المتماسكة الملساء ان تمسه هناك ؟ وشعر بقليل من الطمأنينة ، أيكون قد آن اوان الخلاص ؟ ثم يعود الى عمله ؟ ولكن اين هو الان وكيف قطع هذه المسافات كلها التي تبعده عن عمله والناس والاخرين ؟ واين الاخرون ؟ خطر له في تلك الثانية ان يصرخ ويستجير ، ثم كتم صراخه ، فالارض التي حوله خاوية خالية . وكان الجدار في هذه الفترة القصيرة التي استسلم فيها س .. الى نفسه قد تابع مسيرته ، وها هو ذا يحاذيه مرة أخرى ويدفعه الى التلال دفعا .

حين وضع قدمه على احدى تلك التلال لم يكن يستطيع ان يجزم هل قفز اليها او انها كانت تسير في اتجاهه أو ان الجدار قد دفعه دفعة حملته الى ذلك التل . ماذا عليه ان يفعل الان ؟ وقبل ان يفكر في الاجابة عن هذا السؤال ، جاءه الجواب من بعيد ، من اغوار لايعرفها ولا يراها . « اركع واحفر ! » لم

دمعي على الامس

لا تلمسي الجرح ، اني تائه تعب ... لم يبق غير سنين القحط ، تقترب
جاء الشتاء ، وقد خلفت امتعتي ... في مطلع الدرب ، لا نار ولا حطب
يا ايها الليـل ، هل نجم يرافقني ... في رحلة الصمت ، ان الصحب قد ذهبوا
وحدي ، وكم شمعة ذابت تساهرني ... ودمعة خلفها الاشـواق تلتهـب
صليت في معبـد الاحزان مبتهلا ... كأن هذا الاسى ساعاته حقـب
أخشى على القلب في الظلماء من وجل ... ربي وما حيلتي ان غابت الشهب
سخية الشوق ، كيف الليل نعبره ... ونوقظ الصبح من غفو ، ونصطحب
نحو الرياض التي بالزهر غارقـة ... اللوز بعض غلال الصيف ، والعنب
هـر الصبا مرة في ساح بلدتنـا ... كنا صغاراً هوانـا الدائب اللعب
وكانت الارض بالاعيـاد زاخرة ... لم يعترض لهونا هم ولا وصـب
كل الثمار لنـا والكرم منزلنـا ... والطيب من حولنـا كالمزن ينسكب
دمعي على الامس مدرار ، ولو علموا ... امري لما فاتهم في علتي السبب

برلـين

ابراهيم شعيب

يختر تلا معينا . لم يكن امامه مجال للاختيار . وعاد الصوت المجهول يقول له : « اركع واحفر ! » ايـن يركع وبم يحفر ؟

كان الجدار قد وافاه فشكل قوسا حوله وبدأ يقترب منه وعزله عـن التلال الاخرى حتى كاد يحجبهـا عنه . اذن يجب ان احفـر ههنا . وبحث بعينيه عن اداة يحفر بهـا ولكن المكان كان خاليا من اي اثـر انساني يستطيع ان يستعين به . نظر الى اصابعه واحس بقشعريرة تسري فـي جسمـه . ليس الا اصابعه . والصوت يلح عليه بقسوة متزايدة ان احفر !

وبدأ يحفر التراب ويزيحه بيديه. اذ ذاك انبعث الصوت الرفيع المتالم النافذ . كان صوتا صغيرا قصيـر النفس لم يستمر الا جزءا صغيرا من الثانية . ولكنه استطاع ان ينفذ الى اعماق س .. وان يعتصر فؤاده كأنما تجمعت فيه آلام البشر جميعا. فضاعف من سرعته في الحفر . كان العرق يتصبب مـن جبهته بغزارة ويبلل التراب المرفـوع ، وس ... مسرع في حفره مندفع في ذلـك اندفاعا جنونيا ، وانطلق الصـوت مرة ومرة ومرة . وفي كل مـرة يزداد شدة ووضوحا واقترابا منه. كان صوتا يتألف من خليط مـن صرخات الالم والنشيج والنبـاح والصراخ تقطعه تنهدات صغيرة ضئيلة تنبعث من حنجرة مبحوحـة مخنوقة .

وعمل س ... بأقصى ما يستطيع ان يعمل وبأقوى ما تتيح له طاقته. حتى لقد دهش هو نفسه من هذه السرعة وتلك الطاقة ، كان الجدار خلفه قد بدأ يتضاءل فسمح لبعض النور بالتسرب الى اعلا التل . الا ان س .. لم يكن ليعود أو يتراجع او يهرب . كان الصوت وحده كافيـا لان يشده . ومضى يحفر بيديـه اللتين تشققتا ولم يلبث ان احس ان الصوت لم يعد بعيدا عنه وانـه موشك ان يصل اليه . وكان كلمـا اقترب من الصوت تضاعف غمـه واشتد .

وبـدت لـه آخـر الامر ذراعان صغيرتان بضتـان ، تتحركـان وتتلويان من الالم ، كان يعرف هاتين الذراعين ، وكـان باستطاعته ان يتعرفهما بين الاف الاذرع الصغيرة غيرها .

توقف يسترد انفاسه ويمسـح عرقه المتصبب ، ثم قال للطفـل : « انتظر يا بني ، انتظر قليلا ، انتظر ريثما تفعـل الابرة مفعولها فـي جسمك ، ريثما ينتشر الدواء فـي معدتك . ستبرأ بعد قليل » .

ولكن الطفـل لم ينتظر ولـم يصمت . حمله على ذراعيه المنهكتين وراح يهدهده . ما الذي يؤلمـك . كانت اللغة الوحيدة التي يعرفهـا هي البكاء . وتنهد الطفل تنهـدة طويلة ، كان الهدوء قد بدا يغمـره وراح يتعرق عرقا غزيرا باردا .

واحس س .. الان ، ان الجـدار الصلب الاملس قـد اختفى تماما ، وانتظم تنفس الطفل ، وكان يطلـق بين الحين والحين تنهدة طويلة ، ولم تلبث ابتسامته ان انعكست على فم س .. وتلاشى التل رويدا رويدا. ولم يبق امامه الا طفله . فأسنـد رأسه الى وسادته الصغيرة واغفى اغفاءة قصيرة .

حلب

جورج سالم

مشهد من مسرحية زنوبيا

الحارث :

انــي ليملكني التعجب ... كلمـــا أمعنت فكـــرا
ملــك تقاذفه الرغائب ... والهوى مـدا وجـــزرا
وحكومة انثى تسير ... أمرهـا عنتـــا وكبـرا
فتنت كمـا فتن الفزاة ... بكاذب أغــرى وأورى
ومضت تحث الى الردى ... أجنادها زجـرا وقهـرا
حسبت بأن المجد بالدم ... يجتنى او كــان يشرى
والنصر لــم يك قسوة ... بل رحمة وسعت،واجرا

يقف قليلا ويتابع :

انـــي بعين الغيب ألمح ... دون ستــر الغيب أمرا
كشف الستــار لعاقــل ... فرأى الاذى سطرا فسطرا
واذا الحقائق لــم تعد ... كالامس عن ذي اللب سرا
ملـــك النساء رغائـب ... كغمائم تطـوى وتـذرى

خولة بغضب :

ملـــك النساء طهـارة ... لاسـوء فيــه ولا أذى
ان الضراوة في الرجال ... مـع الرغائب والهـوى
هــم صيروا الدنيـــا ... جحيما لا تطاق وتشهى
وجروا الــى ورد الردى ... يتسابقون الــى الردى
في كل ربع مــن اذاهم ... شاهـــد دون الثـرى
ماذا رأيت مــن النساء ... سوى الوفاء لمـن وفـى
هل كنت تبصر ما تغص ... لـه الجفون مــن الاسى
أو لــم تطاول (زينب) ... في ملكها نجـــم السهى
رفعت على سفن المكارم ... شاهقـــا لا يرتقـى
وجرت الــى العلياء في ... همـــم تجاوزت المـدى

الحارث :

مـــا كنت الا الببغـاء ... حكت ومـا وعت الكلاما
الملـــك بنيـــان وليس ... هــوى يلـــذ ولا مداما
من رام أن يزن الرجال ... على الهوى ظلـم الاناما
ماذا عرفت عــن الرجال ... ومـــا تجاوزت الفطامـا
تقضيــن دون تريـــث ... حمـدا ومدحا او ملاما
والحكم ليــس بشهـوة ... أو كـــان ثـأرا وانتقاما
الحكـــم فيض عدالـــة ... تحكي بنعمتها الغمامـــا

دمشق ... عدنان مردم بك



يعقوب فرام منصور

جبران تحت اضواء جديدة

بقلم يعقوب فرام منصور

* * *

في بحثي السالف المنشور في « الاديب » لشهر نوفمبر ١٩٦٧ ، نوهت بأني سأفرد بحثا مستقلا يعالج القضايا الذاتية التي أوردها بعض مترجمي جبران ، مناقضة للواقع ، غب تسليط « اضواء جديدة » على مراحل حياة جبران ، استقاها الاستاذ توفيق صايغ من مذكرات ماري هاسكل ورسائلها المودعة في كتابه « اضواء جديدة على جبران » . وها انا افعل ههنا .

في ربيع عام ١٩٦٠ ، حررت خطابا الى الاستاذ ميخائيل نعيمه اثر صدور كتابه « سبعون » ، وأعربت فيه عن آرائي في الكتاب المذكور ، وفي كتابه عن جبران ، فقلت : « اني لا انكر قيمة كتابك في جبران ادبيا وفنيا ، بيد ان المنحى الذي نحوت في بعض فصوله قد اعتمد الصراحة التي لا تتورع عن التجريح ، كما انه استند الى الحدس والتأويل ، مضحيا بالحقيقة والواقع في سبيل الاسلوب الروائي الجميل ، فالتغلغل في الاحلام والغيب وخلق تفسيرات شخصية ، ووضع كلمات تخيلية على لسان جبران ، امور لها خطورتها ، وغالبا ما تربك المؤلف ، وتحرفه عن طرآن الحق ودرب الحقيقة ، ويقيني ان الصواب هو في مجانبة هذا المنحى في تآليف السير والتراجم ، فطارقه لا يسلم من العثار والزلل . واني لمؤمن ايمانا راسخا ان احدا لو كتب عنك وفيك ، منتهجا نهجك ، مقتفيا اسلوبك ، لثرت حانقا ، وانفجرت دغصا ، ولثرت وسخطت انا كذلك » .

وقبل ذلك ، عالجت ذات الموضوع في بحثي الموسوم « جبران كما كتب عنه لبنانيون واميريكية » المنشور في مجلة « الورود » البيروتية لشهري آب وايلول ١٩٥٨ ، اذ أبديت رأيي في كتاب نعيمة عن جبران ، قائلا : « ظل هاتف يصرخ في اعماقي قائلا : لا ... ليس هذا هو جبران الحقيقي الذي عقد عنه المؤلف فصلا عنوانه « نبأ كاذب » هذا النعت الذي لم يحاول الاستاذ جميل جبر ان ينفيه عن جبران بعد صدور كتاب بربارة يونغ في جبران ، بل شاء ان يفضل سابقه – ناسك الشخروب – بميزة اخرى وهي نعته جبران بالتاجر ، رغم علمه جيدا ان جبران لم يحيا حياة التجار ، بل حياة البساطة في المأكل والمشرب والسلوك ، وخلف كل ثروته لبشري والفقراء . واشارتي الى كتاب بربارة تعود الى كون معنى « النبأ الكاذب » مشروحا في الصفحة الثانية عشرة منه باستطراد جبران ذاته وتعليق بربارة عليه . قال جبران : I am a false alarm.
I do not ring as true as I would.

ما ترجمته : « أنا جرس – او قرع او انذار – غير حقيقي . انا لا أقرع – أو أرن – بصورة مضبوطة كما اردت – او كما اود » .

ومما يؤيد صحة هذا التفسير هو تعليق بربارة على قول جبران بما يلي : « شعر انه مقصر الى حد في عمل كل ما كان يتوقع منه » .

فتفسير نعيمة اذا غير صحيح لسببين اولهما عدم وجود المناسبة والمبرر للاخذ به ، لان جبران كان آنذاك يخوض مع نعيمة موضوعا روحيا (قطعة عن المحبة) ، وثانيهما اقبال جبران على شرح عبارته I am a false alarm لانه كما يبدو لي قد شعر جبران ان رفيقه لم يفقه قصد جبران من العبارة . وهذا كتاب بربارة قد عربه الاستاذ سعيد عفيف بابا في عام ١٩٥٣ ، فيحسن الرجوع اليه اذا انص الاستيقان . وكان حريا بالدكتور جبر ان يعود الى النص العربي او الانكليزي من هذا الكتاب ، ليعالج هذه الناحية علاجا جريئا عادلا .

وفي فقرة اخرى من بحثي في « الورود » اوردت : « ان نهج نعيمة بسرده بعض اقوال ما فاه بها جبران ذاته ، بل وضعها هو بأسلوب روائي غيبي على لسانه ، كما تخيلها هو ، نهج غير مصيب ، وكان الاجدر به والامثل ان يتحاشاه في كتاب يضعه عن سيرة أعز واقرب رفيق من رفاق حياته . فأسلوبه ذاك يصلح ان يكون لرواية او قصة مختلقة . وكان الواجب الادبي يحتم عليه اما سرد اقوال جبران كما سمعها منه بالذات ، او من مصدر ثقة ، واما عدم سرد بعض الحكايات و (الوقائع) و (الاقوال) المستوحاة ، كما في حديث جبران مع ميشلين في غرفته في باريس ، فهذه اشياء خيالية ، ليس ما يثبت صحة حدوثها ودقة حروفها وكلماتها ، ولا

يستطيع احد اثباتها غير جبران نفسه . فهل جبران حكى لميشا تلك الحكاية ، أم هي ماري هاسكل أم هي ميشلين التي خرجت من غرفة جبران « ولم ترجع الى احد » والتي ارجح ان نعيمة لم تقع عليها عينه ؟ الجواب : لا » .

لقد أجبت حينذاك عن تساؤلاتي بالنفي القاطع نيابة عن الاستاذ نعيمة ، لاني الفيته لا يملك وثائق تؤيد مزاعمه ، ولانه لم يكن شاهد عيان ، ولو كان ثمة شيء من ذلك ، لاورده بالنص . فالتواتر اذا معدوم ، والمعاينة مفقودة ، والاسانيد المدونة لا وجود لها . وعلى هذا الاساس يتسم عمل الاستاذ نعيمة بالتجني .

وينصرم عقد من السنين ، فتبزغ « الاضواء » التي تثبت صحة ما ذهبت اليه في بحثي وخطابي الآنفي الذكر ، بفضل هذا النص من كتاب الاستاذ صايغ ، المقتبس من يوميات ورسائل : « اما حادث باريس ، فيبدو انه مختلق : فميشلين لم تلحق بجبران ، وانما كانت في الواقع في باريس يوم ذهب هو اليها ، والتقيا فيها مرارا عديدة ، كان يذكرها لماري بانتظام في رسائله، وبقيا على الدوام على صلة طيبة حقا . واما خروجها تنتحب في الظلام ، الى انتحار فعلي او الى انتحار رمزي ، فالحياة ـ هذه المرة على الاقل ـ لم تكن فيها عناصر الرواية ، وكانت أقل منها مفاجآت ومدهشات . فسنرى ان ميشلين مهما كان ما حصل بينهما في لقاء معين ما ـ اذا كان قد حصل مثل هذا اللقاء ـ لم تمت ـ ولم تمت شيئا في ذاتها ، وتابعت صلتها بجبران وبماري ، وتزوجت فيما بعد ، وانجبت ، وبعدما اسدل الستار على حياتها في ١٩٠٨ او ١٩٠٩ او ١٩١٠ ـ سنوات اقامة جبران بباريس ـ عاشت بعد ذلك اعواما طويلة ، وماتت في امريكا حيث مات جبران ، في العام ذاته الذي مات فيه ـ بعده بستة شهور » (١) .

ومجمل راي جبران في ميشلين نعثر عليه في هذه الجملة من خطاب جبران الى ماري في اواخر عام ١٩٠٩ : « انها حلوة جدا وعزيزة جدا ، وصلاتي ان تجد سلاما وراحة في ظل رجل صادق طيب » (٢) ، ومنه يسير على المرء ان يستشف عواطف جبران النبيلة تجاهها ، المجردة من العاطفة الجنسية .

وقبلا ثار فيلكس فارس في كتابه « رسالة المنبر الى الشرق العربي » على اتهامات زعمها الاستاذ نعيمة ، نصت ان جبران ارغم ميشلين على الاجهاض ، واقترح ان تساكنه دون زيجة عندما طلبت اليه الاقتران بها في باريس . لكن الاستاذ توفيق صايغ يذكر في الصفحة ٢٤ من كتابه ان الدكتور خليل حاوي افصح له ان الاستاذ نعيمة ـ في الطبعة الثالثة العربية من كتابه ومن نصه الانكليزي كذلك ـ حذف هذه المقاطع عن العلاقات بين جبران وميشلين ، التي بلغ بها الى حد الاجهاض المزعوم ! فماذا يدل هذا الحذف الذي اجراه الاستاذ نعيمة غير الاعتراف الضمني بالخطأ الذي أدركه بعض المنصفين المتجردين منذ ثلاثين حولا ؟ اما المرحوم فيلكس فارس ، فتعود شكوكه الى اول العهد من علاقة جبران وميشلين ، فيقول : « نستميح القراء والمؤلف ان نتساءل في نفسنا عما اذا كانت هذه الحسناء ، الغامضة الاصل والمنشأ لدينا ، كانت لم تزل حتى عرفها جبران، تلك الصفحة البيضاء الناصعة البياض » (٣) .

ورغم حقيقة اقامة جبران بباريس في غرفة صغيرة على مقربة من مقام ميشلين مع رفيقة لها ، فان يوسف الحويك في كتابه « ذكرياتي مع جبران » (٤) ـ الذي في حوزتي ـ لم يذكر هذه الفتاة « ميشلين » مطلقا ، بينما قد ذكر عددا وفيرا من النساء اللواتي نفر بعضهن من جبران لفتوره الجنسي حيالهن . لهذا السبب لم أستحسن من الاستاذ جميل جبر سرده تلك المحاورة المزعومة في غرفة جبران بباريس بين جبران وميشلين، كما اوردها في الصفحات ٨٤ ـ ٨٦ من كتابه (٥) ، معتمدا كتاب نعيمة بشيء من التصرف ، خصوصا وان كتاب الدكتور جبر ظهر بعد عمل نعيمة بربع قرن .

وافضل دليل على ما يؤاخذ الاستاذ نعيمة عليه في عدم دقته في ذكر الحوادث وصدق الحوار ، هو قوله : « وانا مدين لها « ماري هاسكل » بالكثير مما صورته في هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين »(٦) . ذلك ان كلمة (صورته) في الجملة السالفة لا تدل على الدقة والحقائق الناصعة ، اذ ان (التصوير) شيء يغاير سرد الحقائق في مجال السير والتراجم ، كما ان اجتماع الاستاذ نعيمة بماري هاسكل كان قصيرا جدا ، اذا قورن بعمق الوشائج التي ربطت جبران بماري وميشلين ، وببعدها الزمني غير القليل عن وقت ذروة العلاقتين . لذا لجأ الى التصوير واختلاق الحوار في العديد من المواقف التي استوحاها ، لان الغاية القصوى من سرد نظير تلك (الحوادث) التي اختلقها نعيمة وجاراه في بعضها الدكتور جبر ، هي الابانة ان جبران احب حبا خسيسا ، وان جبران لا يعدو « النبأ الكاذب » ! وهذه مثلبة من اكبر المثالب التي شاعت في كتابي نعيمة وجبر، بينما جبران الحقيقي كان على النقيض من هذا الوصف المجحف ، بدليل قول الاستاذ توفيق صايغ : « واضح من الاوراق ان اية علاقة جسدية صميمة بين جبران وماري كانت علاقة محدودة جزئية لم تصل ذروتها الطبيعية قط ، وان الطرف الذي كان مسؤولا عن ابقائها

---

(١) ص ٢٧ ، (٢) ص ٢٨ ، (٣) اضواء جديدة على جبران ص ٢٥ (٤) تحرير ادفيك شيبوب ـ دار الاحد ـ بيروت ١٩٥٧ ، (٥) جبران: سيرته ـ ادبه ـ فلسفته ـ رسمه . دار الريحاني ـ بيروت ١٩٥٨ ، (٦) الطبعة الثانية ـ صادر ـ ص ٢٧١ ، (٧) ص ٧٩ ، (٨) ص ٨٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، (٩) ص ٧٢ ، (١٠) ص ١٧٥ ، (١١) ص ١٨٠.

محدودة جزئية وعن صدها عن الوصول الى حيث كان مقدرا لها ان تصل ، انما كان هو جبران لا ماري » (٧) . واعترافات ماري خير مصداق . وثمة نصوص عديدة تفيد ان جبران لم يكن متهافتا على الوصال الجنسي كغيره من الطائشين النزقين الشبقين ، بل كان يفضل عليه الوصال الروحي . فهل هذا اسفاف وحب خسيس ، أم « نبأ كاذب » ؟! ورغم اعتراف جبران بجمال ماري جسما وروحا في مواضع عديدة من الرسائل والمذكرات ، فانهما لم يعرفا أوج التجربة مطلقا (٨) . وقد بدا لي جبران من خلال هذه الاضواء رجلا مسيطرا على عواطفه وغرائزه ، عقله يسير سفينة فؤاده في خضم الرغبات . واسطع دليل على ما قلت هو ما يطالع القاريء بنفسه النص الوارد في الصفحة ٧٨ من كتاب الاستاذ صايغ ، لانه (خصوصي جدا) ، كما أحيل القاريء الى ص ٧٩ حيث يعثر – من جملة ما يطالع ثمة من يوميات ماري لعام ١٩١١ – على قول جبران « انت صافية جدا ، ومقدسة جدا . أوليس من الافضل ان تكون فينا رغبة – وان نبدل هذه الرغبة ونرفعها الى شيء اسمى – من ان لا تكون فينا الرغبة اطلاقا ؟ اما انت ، فكوني كما انت على الدوام ، كما انت تماما ، ولا تعبئي بي ابدا . واذا سمعتني اريد ، فلا تصغي الي » . هذا نهج من المجاهدات التي لا يستطيعها سوى اقوياء النفوس والعقول ، واغلب ظني ان ناسك الشخروب يقدر هذا النهج خير تقدير .

اما القصة التي رواها الاستاذ نعيمة بصدد امنية جبران في الاقتران بماري وان الباعث عليها كان رغبة جبران في الضمان المالي ، لا الحب الصحيح ، وبأن ماري صدته عنها بسؤالها المقتضب « هل انت نظيف ؟ » ، فليس ما يدعمها في مذكرات ماري ، رغم انها اطلقت نفسها على سجيتها في يومياتها ، وكانت صراحتها ثمة منقطعة النظير . وتلخص ماري رايها في الاقتران بجبران قائلة : « ان عمري هو ببساطة الحاجز القائم ما بيننا وبين هفوة زواجنا ... ان بانتظار خليل حبا يختلف جدا عن الحب الذي يحس به تجاهي – رؤيا الحب – وهذا سيكون زواجه . ان اعماله الكبرى ستكون ثمرة ذلك الحب وسعادته العظمى وحياته الجديدة الممتلئة . ولن تنقضي سنوات طويلة قبل ان يحصل هذا . انا لست الا خطوة في الطريق الى المراة التي سيحبها ذلك الحب . ومع ان عيني الحساستين تبكيان ، الا اني افكر فيها بفرح ، ولا اريد ان اتزوج (خليل) لاني اعرف انها تنمو الآن له في مكان ما وانه ينمو الآن لها » (٩) .

بارك الله على روحك العظيمة يا ماري لانك نبيلة وصادقة ، ولانك دونت لنا هذا النص المفعم !

ان سؤال ماري المقتضب الموجه الى جبران « هل انت نظيف » بزعم الاستاذ نعيمة وردده غيره – مع الاسف – لا يعدو في اعتقادي عن كونه سؤالا خياليا طوباويا مثاليا ، وصدوره من الندرة بحيث يتضاءل امام ندرة الكبريت الاحمر ، واعتقد ان اية امراة او عذراء غربية لا تسأل خاطبها هذا السؤال .

اما راي الاستاذ نعيمة الذي مؤداه ان جبران لم يقرأ دوستوفسكي ، بل قرأ عنه ، فيدحضه هذا النص من كتاب الاستاذ صايغ : « ويقرأ دوستوفسكي ويجد (١٩١٥) فيه بذور حياة جديدة : فكل ما قاله نيتشه له بدوره في دوستوفسكي الذي كانت فيه ، بشكل غريب ، رؤى روح عصره كلها » (١٠) .

هذا ما انصت التعرض له في بحثي ، وختاما ابدي ملاحظتي بشأن الصورتين المنشورتين في ص ١٩٧ من الكتاب ، مرجحا انهما معكوستان . فالعليا هي صورة شارلوت تيلر ، والسفلى هي صورة ميشلين ، بخلاف ما ورد ثمة ، وآمل ان يتدارك المؤلف هذه الهنة في الطبعة القادمة اذا تسنى ذلك .

ويبهجني ان انهي بحثي بهذا النص الذي ينم عن اعتزاز جبران بالعرب وبالادب العربي ، من رسالة الى ماري عام ١٩١٥ : « انه اعظم ادب على وجه الارض ... والعرب هم الامة التي تحظى باعجابي اكثر مما تحظى به امة اخرى ... واهوى ما يتحلون به من بطولة » (١١) . لقد الفيت من المجدي ان اسوق هذا النص بخاصة الى المتعصبين المتزمتين الذين ينظرون الى الادب الجبراني والى جبران خصوصا ، والى الادب المهجري والى المهجريين عموما نظرة ارتياب ، ويقيمونه تقييما دون مستوى الاستحقاق ، لعلهم يبدلون نظرتهم ويصححون تقييمهم . سامحهم الله وهداهم .

بغداد **يعقوب فرام منصور**

الى صورة

صورتي ! أنت في ليالي شتائي
كالصديق الوفي في ايناسي
ترجعين الماضي السحيق بصدق
ووضوح ، كبارع الجلاس
أسفي .. أن في لحاظك رمزا
لمآس عديمة الاحساس
بفم يكظم المرارة قاس
ما سقته الايام ليس بناس
قهقهي ، صورتي : فانا كلينا
قد جهلنا سلوك هذا الناس !

حلب **علي الناصر**

أصـــداء

بقلم اديـــل الخشن

الشويفات ـ لبنان

جماري مخبوءة
تنام في الرماد
مثل قطـة
تستكين للدفء
تغمض عينيها وترنرن .
حبيبة جماري
والف حبيب من اشعلها
حياة تحترق
حـب يخبو
ذكريات تلهب النار .

بين شظايا النجوم
ابحث عن مرآة
انقش فيها صورة
جفوني اطارها ،
اهرول اليها
تحت شراع ضائع
تدفعه رغبة ملتهبة
تنام في سرير الامس .

نادتني الشرفة
أشجار الزيتون تزهر حولها
اغصانها تميل
ويرعشني خيالك ،
قبابها تشهق للضوء
تسأل عنك
وينفرط الزهر حبات ندى ،
الشرفة تمتلىء بك
جدرانها مشحونة بهمساتك
طوقت الجدران
وشربت الصدى .

صوتك يلفني ، يهيج بي
يهدر كالموج ، يتعالى
يسقط في دموعي
ويضيع في الرمال .

شجرة غرستها يداك
حياة رغم الخريف
تحوك عروق الزمن
تحمل خلود الشمس
لي وحدي تنحني اغصانها
اغصانها ملتفة ،
اين ذراعاك
اين الحنين يرجه العناق
تفجره اللمسات
آه لو تأتي
فيتوهج رمادي الهاجع !!

كنت معك . . .
والخزام صمت عطر
أزهار الضفاف مطبقة
والنهر قافلة
تحمل هدير أشواقنا
تفتحي يا شفاه
تفتحي يا زهور
غني حبـا
يقطن في جناح تائه .
وجهك أين غاب
وجهك كيف شرد
الفراشات تهيم
تزرع التساؤل
تستلهم أكواب العطر
اجنحتها تنتصب
تمزق السكون
وتبحر أشرعة من وجد .

مصباح يضيء
وقلبي غلالة
دارت الفراشة
في دوامة اللهب
غاصت في شفاهه
شهيدة !!
تاريخها تلهف واشتعال
احتراقها هلة للتبر والبخور
تعمدت بالنار
واستكانت
وبقيت جماري
مخبـوءة
تنام في الرماد .

الفقيد الامير مصطفى الشهابي

★

نبأ هــز كياني ... وكفى !   يوم وافاك الردى يا مصطفى !

حمل الناعي الينا خبرا   اوشك الصبر به ان يضعفا

جاء والصبح على اشراقه   يطرد الليل ، ويمحو السدفا

حملته الريح من سورية   عاصفا كالريح ... لا بل أعصفا

أعولت تنشره قائلة :   انطوى الفاضل ، والفضل اختفى

آه من فعل الليالي انها   لم تدع للعين فينا مطرفا

كل يوم بغتة من نبأ   يدع الروضة قاعا صفصفا

الاحباء تولوا واحدا   واحدا ، والصاحب الحر جفا

فاعذر العين اذا ما دمعت   واعذر القلب اذا ما وجفا

كل يوم راحل عن حينا   لم يكد يمكث حتى انصرفا

آه لو نعرف عن فرقتنا   لتزودنا !! ولكن أسفا

كيف للمعصوب عينا ان يرى   وللمحجوب القضا ان يعرفا ؟

ذهب العالم منا فجأة   والامير الحر منا اختطفا

كان ملء العين خلقا عاليا   ومروءات ، وفضلا ، ووفا

جمع الاخلاق والعلم معا   فهما في بردتيه ائتلفا

خفض العلم جناحيه كما   وطأ العلم لديه الكنفا

فمتى تلق (الشهابي) تجد   كاسيا بالحسنيين التحفا

يتلقاك بلطف لم يزد   شرف النسبة الا شرفا

خسر المجمع ركنا ، وطوى الموت من صرح المعالي رفرفا

وصحا الساهر في الدرس على   نغم الموت ، وأغفى ، وغفا

رقدة قد خسر العلم بها   أدبا محضا ، وبحثا منصفا

أيها الراحل لا تبعد ! فقد   كنت للفصحى حساما مرهفا

ذائدا عنها ، وعن أمجادها   كاشفا عن درتيها الصدفا

القاهرة   محمد عبد الغني حسن



يوسف عبد المسيح ثروة

مسرح اليخاندرو كاسونا

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

الحق ان دراسة هذا الكاتب المسرحي الساحر ، اليخاندرو كاسونا (١٩٠٣ – ١٩٦٤) دراسة ينبغي لها ان تتقصى اثاره العظيمة لكي يكون الانطباع عنها وافيا بالقصد ، والا – والكاتب الاسباني – جديد علينا بعض الشيء ، فسيفلت منا كله او جله ، لان حلاوة منطقه الحواري ستضيع بين اذاننا والسنتنا ، تحت حد موسى الايجاز والابتسار ..

ومع ذلك ، فليس لنا ، ونحن محصورون بين هذه الجدران الورقية الاربعة ، الا ان ننهض بواجبنا المسرحي نهوضا يليق بكاسونا ولو تعريفا لا درسا وتمحيصا . فمن العيب والغرابة والدهش ، الا يتعرف جيلنا نفسه على كاسونا ، وقد هزت شخوصه خشبة المسرح الاوروبي بل العالمي هزا لا تزال قرقعته المدوية تنتقل من صقع الى صقع ، في دنيانا المعمورة هذه ..

لن اتحدث – في هذه العجالة عن حياة كاسونا الحافلة ، فسنقتصر في بحثنا هذا على ملامح مسرح كاسونا ، بالاستناد الى نموذجين مشهورين من مسرحه وهما « مركب بلا صياد » و « سيدة الفجر » (1) وغرضنا من هذا الاقتصار ان نعرض صورا من مسرح كاسونا ، عرضا حيا متجاوزين التفاصيل التي لا تسمح لنا بها الظروف . فما هي ملامح مسرح كاسونا اذن ؟ وما هو اسلوبه ؟ وما هي فلسفته ؟ وهل نجح في تطبيق فلسفته على مسرحه ، من غير تخلخل ؟ وما هي صورة كاسونا وقسماتها في شخوصه ؟.. وهل هذه الشخوص شخوص ، شامخة الجبين ، حية ، نابضة بالحركة قادرة على المداورة والمناورة والتملص من المزالق والمشاكل بيسر وبغير تصنع وتكلف ؟ هذه الاسئلة وغيرها كثيرة تتوارد على الذهن ، ولكننا لن نجيب عنها بصورة متسلسلة منطقية ، ففي ذلك تحديد لانطلاقنا في هذا الشان ، وفي كل تحديد منطق بارد لا يأتلف وما نحن ساعون فيه ، من دينامية البحث ، وانتقالاته وانطلاقه وحريته . ومع ذلك ، فمن الملامح المسرحية المهمة ، في نتاج كاسونا باسره ملمح لا ينبغي ان يفوتنا مطلقا ، ذلك هو ايمانه العميق بالانسان . فايمان كاسونا بالانسان ايمان لا يقتصر على العمق والشفافية واللطف والمحبة حسب، بل يمتد الى التفهم الصحيح لمشاكل الانسان وظروف حياته ، والى المشاركة الحية المجدية ، في مشاكل بني الانسان ، من حيث عرضها عرضا امينا ، وتبيان ما يعتور حياة المجتمع من اوضار ومظالم وجور وما يحيق بالناس من سوء ومكر واستغلال وانتهاك للحقوق وتفتيت للمصائر وتشويه للاخلاق وتمزيق لعرى الانسانية ووأد لكل القيم وسمل لابصار النقد والتقويم ، وتحطيم للقدرات وقبر للمواهب !

ان الانسان – لدى كاسونا – كائن سام ، هو اثمن رأسمال في العالم .. ولكنه في عالمنا هذا عالم البورصة والمضاربة بضاعة تشرى وتباع . او هو – على الاصح – رقم من الارقام وهذا امر لا يمكن ادراكه ما زالت اقنعة المجتمع تغطي اوجهنا ، وما دمنا لا نميز بين تلك الاقنعة ووجوهنا .. ان مسرح كاسونا يريدنا ان نرى الحقيقة ، بان ننزع – والى الابد – الاقنعة عن اوجهنا – لنعود بشرا سويا ، لا بيادق في لعبة الشطرنج ... ولما كان البخل والنفاق والحسد والتملق والتظاهر – من آثار هذه الاقنعة .. ولما كان كاسونا – يمقت الاقنعة هذه مقتا شديدا مشروعا ، فلا بد ان نتحمل سيل هجماته الشديدة على البخل والنفاق والحسد وما يجري مجراها – من عوارض مرض المجتمع – المنحدر الى طرق التفسخ والانحلال .. وعلى ذلك فان كاسونا ناقد اجتماعي عنيف وحصيف ، ولكن ذلك لا يعني انه لا يفهم حدود البشر ، وامكانيات ابناء آدم ، فهو يعترف بهذه الحدود – وهذا ما يجعله واقعيا يستند الى تصوير الحياة ، في مسراها – وهو لما يرى الامكانيات المكبوتة – بل المسحوقة – يرتفع عن سطحية الواقع ويحلق في اجواء لازوردية خيالية .. تطرزها له رؤياه الخيرة تطريزا موشى ، باجمل ما تكون الوشية . ومن هنا – فقد اجتمعت – فيه وفي فنه – قدرات الشاعر الساحر المتفتح على الآفاق القصية ، ورهافة حسه ، وجمال اسلوبه ، وجرس كلماته المجنحة ، كما تضافرت على قلمه خبرته الفنية ببواطن الحياة وظواهرها ، وما فيها من بؤس وقبح وتفاهة وحقارة ولؤم وتعاسة ، فكانت هذه الخبرة معينه الذي لا ينضب في استخدامه لنوع خاص من النثر الرفيع ، الذي هو اقرب ما يكون الى لغة الشعب ، وابعد ما يكون من سطحية هذه اللغة وبذاءتها وسماجتها ..

واذا كنا نعرف ان لغة الشعب ، هي تراثه الحي ومجمل ثقافته ، وجامعة معارفه ، واداة اتصال افراده ببعضهم ، وزبدة تجاربه – واذا كنا نعلم ان الثقافة الاسبانية – بمفهومها الشعبي – كنز لا يفنى من الفولكلور الممتد على مدى الاجيال ، ابتداءا من الاصول الرومانية والرومانسية القديمة . ومرورا بالثقافة العربية – في العصور الوسطى – وانتهاءا بمأساة الحروب الاهلية التي اهلكت اكثر من ثلاثة ملايين من ابناء اسبانيا – ضحايا وقرابين – اذا كنا نعلم ذلك كله ، ونعلم سعة موهبة كاسونا وقدرتها على تشرب الثقافة الحية من مصادرها الثرة – صح لنا – ونحن نقتفي آثار ساحرنا – ان نفهم الى اي مدى كان كاسونا ابنا بارا لشعبه وكيف انه تجرع ما تجرع من كؤوس المرارة والحرمان – وهذه الحياة التي عاشها كاسونا – كان يمكن ان تورثه السخرية المرة والتهكم اللاذع ، والفزع من الوجود نفسه ، والتشاؤم – ولكنها لم تستطع ان تفعل ذلك – فرقته ولطفه وبشاشته وفكاهته وسماحته لم تفارقه قط في اسوأ الاحوال .. ولذلك نراه اذا ما اظلمت الدنيا في وجهه – يتجه الى الخيال ليجد فيه ملاذا ولو وقتيا عن الظلام الضارب اطنابه على وجوده – ومن هنا كان الخيال والواقع سمتين بارزتين في مسرحه تجدهما يتعاوران على رفد فنه .. واذ عرفنا ان الخيال لا ينفصم عن الشعر ، وان النثر لا ينفصم عن واقع الحياة – كان التزاوج بين الشعر والنثر فضلا عن تداخل الخيال والواقع – سمة اخرى من سمات مسرحه ...

ومع ذلك ـ فان كاسونا ـ لم يصطنع اجنحة الملائكة ، ولم يعرج الى الاعالي دفعا لسام الوجود الحالك ، وسماجة حياته المعطوبة !

ومما كان كاسونا يمقته اشد المقت (غابة الذئاب) التي تنتشر في كل البلدان التي يتنصب فيها المال ، سيدا ، لا كلمة الا كلمته ولا سطوة الا سطوته ، والقسم الاول من مسرحية « مركب بلا صياد » ينوء بالشواهد ، في هذا الشان . ومن مقته هذا ينبع حبه الشديد العميق ، الرهيف ، الذي يمحضه بملء قلبه وروحه ونفسه ، كل البشر الذين يستحقون مثل هذا الحب الذي تتفجر ينابيعه في ارجاء مسرحه بأسره ، ومن هم الذين يستحقون هذا الحب غير المطحونين المسحونين ، المضطهدين ، من كلا الجنسين .

ولكي نكون على صلة برأي كاسونا في (غابة الذئاب) علينا ان ندخل صميم (مركب بلا صياد) ، ففي مكتب رجل الاعمال ريكاردو خوروان ، نسمع اول ما نسمع عواء الذئاب واضحا ، فيه رجة وحشية ، وقسوة انانية موغلة في الدناءة والخسة ، فالصراع بين الذئاب الجائعة صراع بين (الشركة الكندية) وبين ريكاردو ، وما دام الموضوع موضوع الصراع ، فريكاردو قد رأى نفسه في مواقف اسوأ . ومع ذلك فقد عرف كيف يجابه العاصفة ذلك انه ما دام يعرف من اين تأتي الضربة فانه من اليسير ان يتجنبها ، واذ يذكر بيوشع مندل غريمه ، في عالم البورصة الرهيب ، لا يرى باسا ان يقول متبجحا : « ... انه تلميذ مغرور . ان اول ما خاضه من صفقات قذرة في حياته ، انما تعلمه على يدي انا . ولسوف اريه كيف يحترم استاذه (٢) . » نعم سيفعل ذلك ، وهو قادر لانه سيواجه خصمه بسلاحه نفسه ، سلاح الانانية التي لا تستطيع ان تفكر الا بالمقاتل التي تستهدفها ، فليس من شأن اصحاب هذه الاسلحة الجبارة ان يضيعوا اوقاتهم في التفكير في الاخرين . ان الذئب ريكاردو لا يعرف معنى الخوف ، ولذلك فهو لا يهتم بارتفاع اسهم البورصة او هبوطها ، ولكن مدير البنك ، على تحجر قلبه المعروف ، لا يرى من المناسب الا يعطي صورة حية للذئب عن تلك الاغنام ، عن اولئك المساهمين ، فهو يخبره بجلية الامر بقوله : « .. انك لو رأيت المساهمين هناك لشاهدت قطيعا استبد الرعب به ، فاقبلوا يعوون ويصرخون ويتدافعون بالمناكب لكي يتخلصوا من اسهم تهوي الى الحضيض . » ولكن من الذي يستفيد من هذا الرعب ؟ انه ولا شك (مندل) الذي سيسمح بهبوط الاسهم الى الحضيض ، قصد تحطيم منافسه ، وحين تصل تلك الاسهم الى ذلك الحضيض (سيتقدم بكل هدوء لكي يلتقطها) وبذا تؤول الشركة اليه ... ارأيت كيف تكون المغامرة والمضاربة ؟ مندل يريد ان يقضي على (صاحبه واستاذه) ويخرجه من الميدان ، حتى اذا جن جنون المساهمين ، بعد ان تكون موجوداتهم قد تعرضت، بدورها ، الى الهلاك الاكيد ، والنفاد المحقق .. لا عليه ، فهو حر في المضاربة ، حر بالمغامرة ، حتى الى النفس الاخير ، وعلى حساب المساهمين المساكين ، بغية قصد واحد ، قصد شرعي ، معترف به ، هو القضاء على غريمه وابادته اقتصاديا ، والى من يستند (مندل) في نشر هذا الضباب الكثيف من الرعب ، انه يستند ـ حسب تجربة ريكاردو الطويلة ـ الى شراء الصحافة ، وناشري الذعر المأجورين والاشاعات التي تبث القلق بين اوساط الشعب بعامة وبين اوساط المساهمين بخاصة . وتزداد الصعوبات في وجه ريكاردو بقيام ثورة وطنية في موطن امتيازاته النفطية ، ومعنى ذلك ان نظام الحكم الجديد لن يعترف بالمصالح الاجنبية . يسمع ريكاردو هذه الانباء البالغة السوء الا انه يعزي نفسه قائلا : « هذه دعايات سياسية لا يجرؤ احد على ان يؤكدها . ان البترول ليس له وطن . »

ولما بدأت الضائقة المالية تأخذ بتلابيب ريكاردو ، بل بخناقه ، انتقل اصحابه ، اصحاب المصلحة من جانبه الواحد تلو الاخر وبسرعة مثيرة ، حتى عشيقته انريكتا فقد شوهدت وهي تتعشى مع غريمه مندل في فندق كلارديج ، والانكى من ذلك انها نفسها لم تتوان عن محاولة سحب اسهمها . امور مذهلة حقا ـ في العرف الانساني ـ ولكنها ليست كذلك ، في عرف المال وزبانيته ، عندما تنحسر حظوظ وتتعالى حظوظ ، في ميدان المصادفة الهوجاء والفوضى المجنونة ، ميدان البورصة وهذا ما يلحظه ريكاردو بكل جلاء حين يقول : « .. ها انذا ارى اللعبة بوضوح . السفينة توشك على الغرق ، والفيران تسرع لمغادرتها » . غير ان الذئب هذا ، ليس له ان يستسلم ، فهو يجيد المداورة ، وكل من يجيد المداورة يعرف كيف يتغلب على خصومه عندما تؤاتيه الفرصة .. وها هي الفرصة تؤاتيه بعد ان اخذ منه الوصب ماخذه ، فانهار على كرسيه يرجو شيئا من الراحة لاعصابه التي كادت تتفتت. . ها ان رجلا متشحا بالسواد يدخل الغرفة التي فيها ريكاردو (الرجل ذو مظهر عادي لا يميز شخصيته الا وجه تلوح عليه علائم الجرأة وذقن مدببة وابتسامة باردة) فمن يكون هذا الرجل ؟ انه شيطان مارلو في مسرحيته (الدكتور فاوست) ومفستوفيليس في مسرحية غوته (فاوست) انه الشخص الوحيد الذي يستطيع انقاذ اي انسان مهما تكن هاوية ورطته عميقة .. ذلك « ان الشيطان ليس شخصا من لحم ودم ، بل هو فكرة مجردة » . فكرة الاثم والشر والظلام والاسرار ، وبما ان كاسونا ـ لا يجد ـ في النظام المالي كله غير الشر المتراكم المتحول دائما في صوره واشكاله ، من تحولات الدورة الاقتصادية ، وبما ان هذا الشر لا يمكن ان يحل مشاكله بغير شر افدح منه مسؤولية واخطر منه شانا ، فان الشيطان هو العون الوحيد ، الذي يمكن ان يمد يده لانقاذ هذا النظام من تناقضاته التي تنتهي دائما في ازمات وحروب مدمرة .. ذلك ان الشيطان نفسه هو تجسيد معنوي لهذا النظام .. ومن ذلك كله فليس غريبا ان ينتبه ريكاردو الى هذه الحقيقة حين يقول « هذا مستحيل ! شيطان يتجسم في هذا العصر .. وفي هذا المظهر ! » غير ان هذه الاستحالة التي يريد ريكاردو ان يتشبث بها دفعا لانتباهته الفطرية ، ما تلبث حتى ان تنقلب الى واقع ملموس ، واذا بالرجل الشيطان قوة حقيقية لا قوة وهمية خيالية طارئة وهذا ما اثبته الرجل عندما حاول ريكاردو ان يزحزحه من مكانه ... والغريب في هذا الشيطان انه شخص عاطفي رقيق القلب ، لا يهتم بشيء اهتمامه بالروح ، على الضد من اصحاب ريكاردو الذين لا يهتمون بشيء اهتمامهم بالماديات وبشباك المال والاقتصاد ، وعاطفيته هذه فضلا عن رقة قلبه هي التي دفعته الى انقاذ ريكاردو من منزلقه الذي كاد يودي به الى قرار سحيق ..

والاغرب من ذلك ان هذا الشيطان يحتفظ ببطاقة كل رجل من رجال المال ، واذا ببطاقة ريكاردو (حافلة فعلا بالخيانات والشرور والفضائح والاضرار) حتى الالم الانساني لم يهز قلبه مرة واحدة . لانه لم يحافظ على يمين اقسم . ولم يحترم امراة غيره . اما وصيته التي لم تنفذ ، وصيته بعدم اشتهاء مال الاخرين ، فيرى انه من الخير لهما الا يخوض فيه . واذا علمنا ان هذه الوصايا هي وصايا سماوية . علمنا المدى الذي استغلها فيه كاسونا ـ من اجل تكثيف العمل الدرامي وشحن التازم النفسي شحنا اخاذا .. لقد خرق ريكاردو اذن كل ما أمره القانون باحترامه وضرب به عرض الحائط ، ولم يبق من الوصايا الا وصية واحدة هي : لا تقتل .. فلماذا لا يقتل لكي يتم خرق كل الوصايا .. وبذا يتوج حياته تابعا امينا للشيطان ؟

لانه وقد بلغ الدرك الاسفل من الانحطاط ، فليس بينه وبين هذا التتويج غير عمل بسيط واحد ، هو استلاب الروح ، جريمة القتل التي قد لا يسفك فيها الدم ، افلم يفعل ذلك من قبل ؟ بلى انه فعل ذلك وهاك ما لحظه الرجل (الشيطان) في بطاقة ريكاردو انه يضرب مثلا لذلك فيقول : « مثلا حينما كنت طفلا فقيرا كنت تتجول على ارصفة الميناء باحثا عن موزة فاسدة لكي تسد بها جوعك . وبعد ثلاثين سنة اصبحت تلقي في البحر بمئات من العربات الكاملة من الموز

حتى ترفع سعره . اي اسم يمكن ان يطلقه على هذا العمل اولئك الاطفال الجياع الذين ما زالوا يتجولون على ارصفة الميناء ؟ » ارأيت الحكمة في اعلى اوجها ، في جلالها وروعتها وحقيقتها الواخزة العارية الصارخة ؟

وحكمة من هي هذه الحكمة ؟ انها كلمة يلقيها الشيطان لتكون موعظة العصر الجديد ، على جبل النار ، وهي ـ على بساطتها ـ تعطينا المفتاح الصحيح لفتح مغاليق النظام الآسن ، الموغل في الموبقات والاجرام . الاطفال يجوعون ويموتون جوعا ، وجوعهم يفتت الاكباد ويشوي النفوس ويهري الجلود ، ولكن الدنيا قاعدة لا تقوم ، لان (القلب ناصح مفسد لصفقات رجال الاعمال) . ومن الغريب حقا ان هذا الشيطان مطلع اوسع الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة من شؤون هذا النظام الذي يصنع المرضى ثم بعد ذلك ينشىء المستشفيات لهؤلاء المرضى . غير ان ريكاردو لا يعرف ولا يكاد يصدق اذنيه ، ان الشيطان يمكن ان يكون رؤوفا بالانسان حادبا عليه . والا لما كان شيطانا جادا مقدرا لواجبات عمله وهو لا يرى في هذه المواعظ غير اثار بالية لم يبق لها معنى في هذا الوجود المستند الى الواقع الذي يحياه الناس ومع ذلك يوغل الشيطان في اثارة المشاكل وعرض الشرور التي تنبثق من طبيعة هذا النظام .

غير ان ريكاردو لا يرى نفسه المسؤول الوحيد عن ذلك كله فهو يقول : « لكن هذه الشرور التي تتهمني بها لست انا المسؤول وحدي عنها » فكثيرون غيره مشاركوه فيها وعليهم جميعا تقع التبعة .. غير ان هذه الشرور تهون في نظر ريكاردو فلا يبالي بها ، انه يراها امورا ثانوية اعتيادية يمارسها بعضهم بكل ضمير مرتاح ، اما القتل بالمعنى الحرفي من الكلمة فمسألة يرفضها ريكاردو ، لانه يجدها عسيرة الفهم ، صعبة الاجراء ، غير ان الشيطان وقد عرف انتهازية صاحبه لم يلبث ان لوح له بالصفقة فرجل مثله لا ينبغي له ان يرفض صفقة دون ان يسمع الشروط ، وهذه قضية حساسة بالقياس الى رجل المال . ماذا لو ان جريمة القتل لا تكون عملا محسوسا ماديا ؟ ماذا لو كانت المسألة تتعدى النية الاجرامية حسب . وكانت هناك مقابل هذه النية شروط مغرية لا يمكن دفعها ـ وقد وضعها الشيطان في صالح ريكاردو ؟ ان الجريمة ستقع على بعد وسيكون الجاني بعيدا عن ايدي العدالة الفولاذية . لا عليه اذن من جرم في صددها.. انه بريء ماديا. افلا يكفيه ذلك مقابل اعادة اعتباره والقضاء على منافسه مندل وهزم غرمائه ، في ميدان المال الجليل ؟ بلى يكفيه ذلك وزيادة . انه سينتصر وهذا امر عظيم بالقياس الى ذلك الصياد مثل الالوف من غيره من الصيادين « انه يصعد الان تلك الربوة في طريقه الى بيته المطل على البحر » فليوجه اليه ارادة القتل وليرمه من حالق بين الصخور ، وبخاصة والرياح تهب بشدة من هنا وهنا ، واسباب الجريمة غير واردة . فماذا ينتظر ؟ ان الضحية تكاد تقع في الهوة فليدفعها بارادته حتى تعود ثروته اليه وجبروته وسطوته . ماذا ينتظر؟ (لم يبق الا قليل من قوة الارادة) وتنفلت الارادة من عقالها ، ويتم سحر الاغراء ، فاذا بتلك الارادة « لفحة عنيفة من ريح سوداء على الربوة الصخرية ونهاية صياد . شيء يتكرر كل يوم » . وتسمع صرخة من مكان ما ، وتهز هذه الصرخة طبلتي اذني ريكاردو وتخترق اغوار نفسه فتتشنج اعصابه ويقول : « ولكن .. هذه الصرخة !.. لو انني على الاقل لم اسمعها ! »

ويحدث انقلاب شامل في اسعار الاسهم فجأة . واذا بالنصر الذي دبره الشيطان يأتي ذليلا صاغرا ليتمسح بقدمي ريكاردو ، واذا بانريكيتا تقسم له انها باقية على العهد ، وانها ـ ان فعلت ما فعلت فمن اجله وحده وهذا امر ليس غريبا منها وهو ما كان يتوقعه ريكاردو ! ولذلك فحين تحدثه باخلاصها له يقول معقبا : « .. هذا هو ما كنت انتظره منك . ولكني انصحك بالا تكوني قليلة الصبر مع « الاخر » كما كنت معي . فانه من الحكمة ان ينتظر موت الدب قبل ان يتفق على توزيع جلده » . ثم ان هذا الاخلاص ، بل الولاء له تصاعد بشكل حمى مع تصاعد الارقام ـ في البورصة ـ فاذا باصحابه الذين تخلوا عنه في وقت المحنة يتنافسون فيما بينهم ليعرضوا عليه ولاءهم وثقتهم واعتزازهم به ـ انهم جاءوا ـ وكلهم شجاعة وبطولة وبسالة ـ ليساعدوا المنتصر ! غير ان النصر هذا نصر مشكوك فيه طالما هناك بقعة دم تلوث رايته . لكن اين هذه البقعة ؟ ان انريكيتا لا تراها ، بينما يراها الذي اهدرها ، يراها على شاطىء من الشطآن، في قرية من القرى يراها في جسد مسجى تحوم حوله اسراب من طيور الماء .. جسد يكتشفه طفل صغير .. وسرعان ما تعمل هذه الرؤية عمل المعجزة ، واذا برجل المال ريكاردو انسان اخر ، انسان وجد نفسه للتو واللحظة ، بعد ان فارق آدميته طوال هذه المدة .. انه الان انسان سليم يفر من المجذومين .. ولذلك فهو يناشد جماعته ـ ولاول مرة ـ ان يفهموا انهم بشر فيقول : « اني اسائلكم انتم يا من تشترون وتبيعون كل شيء : بكم يستطيع المرء ان ينزع من اذنيه صرخة مذعورة اطلقتها امراة ؟ اي نهر من الذهب يستطيع ان يعيد النور الى هذه العيون الزرق التي جمدت فيها النجوم من برد الموت؟»

ها ان شاؤول قد اصبح بولص ، العدو اللدود الذي كان يناصب اتباع السيد الناصري العداء ، يؤمن بالسيد ايمانه باقدس مقدساته ، لقد ولد شاؤول اذن ولادة جديدة ، وكذلك جرى مع ريكاردو ما جرى مع بولص . لقد مات ريكاردو الدنيء ، المخاتل ، القاتل ، المنتهك لكل الحرمات المستهل لكل الموبقات .. فليحيا اذن ريكاردو الثاني ـ الانسان المولود من روح الانسانية المنبثق من رحم الرحمة ! فلننتقل الى قرية القتيل بيتر اندرسون ، في الشمال ، حيث نجد الجدة تتجاذب اطراف الحديث مع فريدا اخت ستيلا زوجة بيتر ، الجدة تشعر بفقدان بيتر شعورا بسيطا آسرا حين تقول : « .. متى نقص طبق الرجل لم تعد هناك ضحكات ولا نبيذ ولا غد . امرأتان وحيدتان ولا اكثر من ذلك .. » وتستطرد ، « ملعونة ! .. ملعونة هي الدار التي لا تضم الا نساءا وحيدات ! » الجدة لا تستطيع الا ان تمعن في الحديث لان الكلمات اذا ظلت في دخيلتها احرقتها ، فلتذهب اذن مع الريح ، فالكلمات التي لا تقال لا تلبث ان تتعفن في سرائر الصدور .. وتريد فريدا ان تبوح لها بسر في نفسها ولكنها تكظم ما في نفسها وهذا امر يزعج الجدة كثيرا ولذلك تخاطب فريدا بقولها : « .. اذا كان هناك شيء يعض روحك ويدميها فتذرعي بالصمت ودعيه يمزق احشاءك من الداخل » . ذلك بان الصمت هو اشد ما يفزعها ، وهو لديها والظلام صنوان ، في اثارة الرعب والفزع والرهبة !

وتعود ستيلا لتلتقي بفريدا ، واذا بالاختين وجها لوجه .. فريدا تتصورها في واد غير واديها وستيلا تنكر ان تكون موجودة في واد اخر ، فهي في الوادي نفسه مع اختها . فريدا تريد ان تعزيها بما حدث لغيرها من النسوة في القرية . فهذه مشيئة الله . لكن ستيلا لا تهدأ . وعندما تقول اختها : « ولكن من يحرك الريح اذن ؟ » تنفجر ستيلا فتقول : « لم تكن ضربة من ضربات الريح تلك التي قذفت به الى سفح الجبل . بل كانت يدا اثيمة مجرمة » . وتذكرها اختها بقرب بيتها وبانقطاعها عنها ، فتلجأ ستيلا الى احلامها ترجو فيها ترويحا لنفسها كأنما هي تستعرض جيشا من الاشباح الماشية في الضباب .. اشباح صامتة ليس منهم من يرثي لالم امراة وحيدة تمزق نومها اسئلة محرجة ، منكوبة ، شنيعة ، مفزعة ، لا تحظى بجواب .. ستيلا هذه تريد ان تقضي ايامها في بيتها ثابتة جامدة كما لو كانت المجداف المعلق على الجدار . فريدا تريد ان تعرف ماذا تفكر اختها

---

(١) لم يسر لنا ضيق المجال لنا دراسة (سيدة الفجر) . (٢) شواهد « مركب بلا صياد » من ترجمة د. محمود علي مكي .

هزيمة النصر

يا حلم يخفق في الرؤى — قمرا يضوىء في الحنايا
الليل أسحم ، والشجون — تثير في روحي أسايا
يا قدس ، صمتك قاتل — كم تصبرين على الرزايا !
لو تنطقين ، لعلهم ... — قد يخجلون من الخطايا
ردي الرماح الى الصدور — فقد شبعت من البلايا
يا قدس واهبة الخلود — أكاد أغرق في دمايا
قصفوا المآذن والقباب — وأسمعوا الدنيا حكايا
النصر ؟ .. تلك هزيمة — ستظل ترجمهم منايا
ويظل مجدك في الضمير — سنا يضوىء في الحنايا

قطر — راضي صدوق

فيه ، غير ان اختها لا تريد ان تبوح ما في نفسها ولذلك فهي تحدث اختها قائلة : « .. لو كان هناك شيء لكفاني ان افكر فيك انت وفي ابنك لكي اسكت عن قوله » . غير ان ذلك الجواب ذا المغزى القريب الذي طلعت به ستيلا يفاجئها برعدة مخيفة تتملكها من اخمص قدمها الى سمت رأسها ، فتلح في التساؤل وتفصح عن شكها في كرستيان زوجها ، ولكن حلم كرستيان هذا ، كان يراود ستيلا كأنه برق اسود منتصب على الدماء التي تلطخ سفح الجبل ..

ويدخل ريكاردو بمعية ماركو الى بيت الارملة والجدة التعسة . فماذا الذي جذبه الى هذا المنزل بالذات ؟ انها الرغبة في التعرف على قرية بيتر والاشياء التي كانت خاصة به والناس الذين كان يحبهم .. هذه اشياء لا بد انها كانت تخطر على باله الخائض في بحر الوساوس والقلق والحيرة ، وتمضي ستيلا وكأنها تجيب عن اسئلته قائلة : « اما الاشياء فهي قليلة : هي هذه الجدران الاربعة ، ومركب صيد مشدود الى رصيف الميناء بعد ان لم تعد له جدوى . واما الناس الذين كان يحبهم فهم اهل القرية جميعا ونحن الاثنتين » . ويشرح ريكاردو قضيته بصورة مبهمة ويبين « ان سعادته او شقاءه كانا رهينين بالتوقيع على وثيقة وكان اسم بيتر اندرسون هو الذي قرر مصيره كله » .. هذا شيء حدث يمكن فهمه ، اما الشيء الذي لم يكن له ان يفهمه هو « ان السعادة والشقاء يمكن ان يكونا شيئا واحدا » . امر غريب حقا ان تتحول السعادة الى شقاء مقيم ، ها ان الحصيلة اذن شر فظيع ، وما المال ـ بفقدان الضمير ، والتنكر للقيم وضرب الاحاسيس الانسانية ـ الا قوة شريرة تحطم كل شيء قدامها ، لا من اجل هدف تسعى اليه ، ولا وسيلة تحقق ذلك الهدف ، فان المال ليس له هدف ولا وسيلة . لان كل وسيلة الى اي هدف مهما تكن الوسيلة ومهما يكن الهدف ، عمل زاد نصيبه من الجدوى او قل ، الا اكتناز المال فليس له ما يبرره الا الاستزادة منه ، وبالتالي فهو تراكم كمي ، ليس فيه من العمل نصيب .. ولهذا كان الرأسمال ـ سواء منه الثابت او المتحرك على طرفي نقيض مع العمل . وكان هذا التناقض بينهما تناقضا جذريا لا يمكن تسويته الا بان يصبح الرأسمال نفسه اجتماعيا كما ان العمل جهد اجتماعي .

ومن ثم فليس في الدنيا مال يكفي لملء الفراغ الذي تركه الصياد بيتر في بيت ستيلا .. وهذا العداء بين الانسان والمال هو الذي يفسر لنا تردد ريكاردو في مسالة مجيئه الى القرية .. غير ان انسانية ريكاردو ـ وقد تغلبت على جشع المال ـ تنتصر فيجيء القرية بل البيت الذي انتصب في احلامه قصرا رهيبا ، سيدانه امرأتان ، الجدة التي تفصح عن ذات قلبها بيسر ، والارملة التي تتناوح بين جنبات نفسها رياح الحزن العميق . لقد اصبح ريكاردو انسانا حقيقيا ، بعد ان كان اسما ، رقما سندا من السندات ، لقد انفصل عن تاريخه القديم تمام الانفصال ، وعن كل ارض اخرى غير التي يجدها في القرية بل في هذا البيت بالذات ، فليس هناك من ينتظره في اي مكان . ان ريكاردو ، الذي يعرف العالم الذي فارقه لا يجد غضاضة ان يغض بصره حين ينظر الى انسانة قديسة هي ستيلا . وعندما تتساءل ستيلا عن سبب ذلك يجيبها : « لا ادري . فانا قادم من عالم لا يقدم فيه احد شيئا الا لقاء اجر . حتى احط الجرائم واجبنها لا ترتكب الا لقاء مال معلوم .. حيث ينظر الناس الى كل من لا يعرفونه نظرتهم الى عدو منتظر » . ويلوح ريكاردو بموضوع شراء مركب الصيد ، فاذا بستيلا يجن جنونها ، فهي تفضل ان تجوب الطرقات سائلة كسرة الخبز على بيع المركب ، اذ لو فعلت ذلك لكان بمثابة بيعه هو . كيف يمكن ان يباع هذا المركب الذي (كان سلما طويلا كل درجة فيه تعني اسبوعا جديدا من الالام والتضحيات) . وتنفتح الجدة على نفسها وعلى ستيلا وتتحدث عن مجيء ريكاردو فاذا بالبيت قد اصبح منذ وصوله وكأنما قد فتحت فيه نوافذ جديدة من كل ناحية ، وتبادلها ستيلا هذا الانفتاح فاذا بالدم الذي يجري في عروقها ينبض نبضا خاصا ، لقد كانت من قبل تعرف ما تريد اما الان فلم تعد قادرة ان تفكر في شيء تفكيرا مطمئنا ذلك ان رجلا آخر دخل حياتها .. رجلا خرج من البحر ليحل محل الذي هبط اليه فكان خروجه خيرا لهذا البيت الذي كان اشد ما يكون تلهفا الى مثل هذا الرجل الانسان !

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

قصة

رجل سيء السمعة

بقلم عبد الحميد الانشاصي

منيب رجل موفق في عمله قوي ، جريء ، ولكنه يعتدي على غيره من الناس دون ان يحسب حسابا لشيء . انه مجرم سافل بذيء اللسان لا يحترم احدا . انه غادر لا يقيم وزنا للاصدقاء . يفتك بمن يخاصمه فتك قاطع الطريق المسلح برجل اعزل بريء . يعبث بقلوب العذارى فيشوه سمعتهن . يا لخسارة ذلك الوجه الجميل الذي يلاصق راسا ملؤه الخبث والدس والشر .

(منيب رجل عصبي المزاج ثائر الطبع طائش الفكر . غير انه في ساعات هدوء باله وراحة نفسه تتجلى طيبة قلبه وحلاوة نطقه وذكاؤه وانسه . وهو يحب العمل والجد فيه في كل حال ، ويتغلب على اليأس في كثير من الاحيان) .

مضى عليه زمن طويل وهو يعمل بقالا في الحي الذي يقيم فيه ، وكان موفقا في عمله . غير انه تبين له اخيرا ان نفقات اسرته تزيد على ربحه . وهذا نتج من ازدياد في عدد اولاده ، فقد اصبحت اسرته اليوم مؤلفة من اولاد يبلغ عددهم ضعفي عددهم منذ سنين . لذا اعتزم ان يبحث له عن عمل آخر . وقد سمع منذ بضعة ايام ان مصنع الجوارب الذي انشيء حديثا في مدينته في حاجة الى موظف بارع في الحساب ومسك الدفاتر . فاستبشر خيرا ، وامل ان يفوز بالوظيفة الشاغرة فيه ، فان له موهبة فذة في الحساب قلما يجاريه فيها احد .

واجه مدير مصنع الجوارب ، وقدم اليه استدعاء يرجو فيه تعيينه كاتبا للحساب ، وبعد ان اجري له امتحان في هذا الشأن تبين للمدير انه كفء للوظيفة الشاغرة ، فوعده بتعيينه كاتبا عنده بعد مضي ثمانية ايام ، اذ يصبح المصنع في ذلك الوقت مهيأ للعمل .

اغتبط منيب بفوزه بالوظيفة ، وراح يتحدث الى اصدقائه ومعارفه عن براعته في الحساب ، وعن الامتحان الذي اجري له ووفق فيه كل التوفيق ، وعن ثناء مدير مصنع الجوارب على ذكائه وسعة عقله . فاستكثر بعض اصدقائه ومعارفه ان يفوز رجل بغيض مثله بتلك الوظيفة ، وآثروا ان يفوز بها رجل غيره ، وراحوا يسعون لتغيير قلب المدير عليه .

وكان احد الواشين رجلا معروفا بالاستقامة ومتانة الاخلاق ، وكثيرا ما حيا منيبا كلما مر به في طريق او صادفه في مكان . غير ان من طباع ذلك الرجل الوشاية . قابل مدير مصنع الجوارب وقال له :

« انك لا تعلم من امر منيب مسعود شيئا . لقد كان هذا الرجل شريكا لشخص حسن السيرة في حانوت لبيع البقول . وكان شريكه طيب القلب يحسب ان الناس جميعا مثله طيبو القلوب . كان في بعض الاحيان يغيب عن الحانوت لقضاء حاجة له تاركا العمل لشريكه منيب . وكان هذا يختلس بعض النقود المتجمعة في درج الحانوت حتى ادى عمله ذاك الى الافلاس . وشريكه الطيب القلب لم يخطر بباله ان منيبا اختلس من المال شيئا . كان يثق به ويعده اوفى اصدقائه ، فان منيبا طلق اللسان كثير النكات يعرف كيف يساير محدثه ويضحكه ويدخل الانس والسرور على نفسه. خدع شريكه بذلاقة لسانه وطلاوة كلامه ، واستولى على عقله بما اظهره من فنون ذكائه في الحساب والبيع والشراء حتى سلم اليه ادارة الحانوت ، وراح يستشيره في كثير من الامور ، ويثني عليه امام اصدقائه في حماسة بالغة . ولكنه لم يلبث بعد مرور بضع سنوات ان تغير عليه ، فقد مني بخسارة فادحة ، اوقعه منيب في ديون كثيرة اضطر بسببها الى بيع حصته من محتويات الحانوت للوفاء بها . وقد حاول ان يتخلص من عبء الديون بكل وسيلة ممكنة ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فان شريكه الذكي احكم الخناق حول عنقه وضيقه عليه حتى كاد يموت غما . وقد ادرك الناس ، ان منيبا هو الذي جلب الافلاس الى شريكه وان ادعى انه هو ايضا افلس مثله . كل يعرف ان منيبا ذميم الاخلاق يأتي المستحيلات لينال وطرا له . وشريكه الان فقير جدا ليس لديه رأس مال يتمكن به من فتح حانوت آخر فيستقل به عن منيب . وقد علمت انه يعيش بأموال يقترضها من اقربائه واصدقائه . اما منيب فقد استقل في الحانوت، ثم انعشه واعاده الى ما كان عليه من الازدهار . غير انه لم يلبث ان مني بمثل الافلاس الذي جلبه على صاحبه ، فان الله مطلع على ما في القلوب . انه يعرف الخبثاء الذين يتظاهرون بطيبة القلوب ، ويعلم كيف يعاقبهم على سوء عملهم » .

وواجه مدير مصنع الجوارب ايضا رجل آخر . انه اعز صديق على منيب . كثيرا ما قضى معه اوقاتا سعيدة ذاقا خلالها حلاوة الهناء ولذة الحياة . مرارا ترددا الى دور السينما فشاهدا الافلام التي تدور موضوعاتها حول الحرب والبطولة والحوادث الفجائية . وكثيرا ما

جلسا الى طاولات المقاهي فلعبا الورق والدومينو . وكثيرا ما تناولا الطعام معا . وكان ذلك الرجل احد معارف مدير المصنع . وقد الفه حتى زال ما بينهما من كلفة . قال للمدير :

« ان منيبا لا يستحق الوظيفة التي وعدته بها ، فهو مجرم اثيم ، لقد عجلت بتعيينه . وكان من المستحسن ان تتريث قليلا للتأكد من سيرته واخلاقه قبل ان تسند اليه تلك الوظيفة . كل يعلم ان منيبا رجل شرير يعتدي على الناس . كل يعرف ما جرى بينه وبين تاجر الجملة ابي سلمان الشامي من عراك شديد انتهى بكسر يد ابي سلمان الشامي . كسر يد ذلك الرجل المسكين . هل هناك شخص اشرس اخلاقا واغلظ قلبا من منيب ؟ انه قوي العضلات يميل الى المصارعة والمشاجرة . اما ابو سلمان الشامي فهو دمث الاخلاق حلو المعشر . وقد ظلمه حينما كسر يده . ان منيبا هو الذي يستحق كسر اليد . لاشك ان منيبا هو الذي اعتدى على ذلك الرجل ، واتهمه بما هو بريء منه . اتهم ابا سلمان الشامي بأنه باعه كروسا من الكبريت ينقص ثلاث دزينات . مع ان ذلك كان ادعاء من منيب ، اذ كيف يتقن لف الكروس الناقص ؟ ان النقص يظهر فيه قبل اللف وليس في الامكان لف الكروس وهو ناقص . وهبه صادقا في قوله ، فهل يعتدي الانسان على اخيه من اجل نقص بسيط كهذا ؟ وقد نصح بعض الناس ابا سلمان الشامي برفع قضية ضد منيب يطالبه فيها بالتعويض عن كسر يده وبدفع ما انفقه عليها حتى جبر عظمها . ولكن ابا سلمان الشامي دمث الاخلاق كما قلت لك . لقد ابى ان يرفع قضية ضد منيب ، واكتفى بعودة يده الى ما كانت عليه من السلامة قائلا : سيحاسبه الله على جريمته . فلا شك ان رجلا كمنيب اذا اسندت اليه وظيفة في مصنعك عاث فيه فسادا وحول الهدوء فيه الى شغب والمحبة الى بغضاء والربح الى خسارة . ان منيبا لا يؤمن جانبه ولا يوثق به . ولست ادري كيف اهتممت به وعطفت عليه وعينته موظفا في مصنعك . لماذا لم تستشرني قبل تعيينه ؟ انني ادرى الناس به ، فقد صاحبته وعاشرته زمنا طويلا . فأنصحك بتعيين رجل اخر ذي خلق حميد وسيرة طيبة » .

وقد سمع شيخ جليل معروف بالتقوى والصلاح ان منيبا عين في مصنع الجوارب ، فساءه ذلك النبأ



عبد الحميد الانشاصي

•

لما يعلمه من علاقات منيب الغرامية بالنساء وعبثه بالتقاليد ، ورأى ان يعين ابن قريب له صالح بدلا منه . قابل المدير وقال له :

« لست ادري كيف عينت منيبا كاتبا في مصنعك وهو معروف بمغامراته النسائية . انه زان لا يتقي الله ولا الناس . همه ان يوقع الفتيات الحسان في حبائل خبثه وخداعه . انني جاره وادرى الناس به . ولو علمت انك تريد ان تعينه موظفا عندك لاطلعتك على جلية امره . لا شك ان بعض الفتيات سيعملن في مصنعك . فهل ترضى ان يعمل معهن رجل كمنيب لا يخاف الله ولا يخافك ؟ هل ترضى ان يغريهن كما اغرى ثلاث فتيات وهو يبيع البقول في حانوته ؟ ان منيبا قادر على تحويل حانوتك الى عش غرام . وبذلك يشوه سمعتك ويلوث سمعة الفتيات اللواتي يوقعهن حظهن التعس بين يديه . بقليل من الحلويات تمكن من الاستحواذ على قلوب فتيات مسكينات ، فجر الذل والتهكم والتحقير على اولياء امرهن، ووصم اسرهن الكريمة بالرذيلة والخلاعة .. ان منيبا كالوباء يكافحه الناس اينما وجد . انني اعرف شابا نجيبا تخرج في المدرسة منذ بضعة اشهر . وهو خير من منيب الف مرة . انه حيي لطيف رقيق الطبع طيع . وليس كمنيب المشاغب المشاجر . انك ان اصررت على توظيف منيب ذقت منه من البلاء شره . كيف يمكنك غدا ان تتغلب على مجرم مثله ، انت في حاجة الى شاب خرج من المدرسة الى الحياة منذ عهد قريب ــ شاب بريء طيب القلب لم يتمرس بعد بدنيا الخداع والمكر والخبث ، لا الى رجل تمرس بكل الوان الرذائل حتى تحول الى جيفة نتنة تدار عنها الانوف وتصد عنها النفوس » .

لم يجد مدير مصنع الجوارب بدا من ان ينبىء منيبا بأنه عدل عن تعيينه كاتبا عنده . وقد سمع منيب بما وشى به الوشاة فكاد قلبه يتقطع اسى وسخطا . فقد وظيفته بعد ان اطمأن الى انها اصبحت في يده . فزع الى احد معارفه وهو صديق مخلص لمدير المصنع ، ورجاه في حرارة ضارعة أن يقنع مدير المصنع بأنه بريء مما وصمه الوشاة به من سوء السمعة والتلفيق . اقنعه منيب بأنه مظلوم منحوس الحظ . تعقد جبينه، وفاض الحزن من عينيه الذابلتين مع نظراته المستغيثة المتضرعة . فأيقن الرجل انه مظلوم يستحق كل مساعدة

يقدمها من اجله . وقد وعده بأن ينبىء مدير المصنع بأن اولئك المدخلين كاذبون ، وطمأنه الى انه سيعاد الى وظيفته .

واجه الرجل مدير مصنع الجوارب ، وقال له بنغمة جدية رزينة :

« يا صديقي ! انك تعلم انني لا اقول الا الصدق . وانا اليوم جئتك لانبئك بان اولئك الذين شوهوا سمعة منيب هم مبالفون ، في نفوسهم اغراض لا تعرفها . انمنيبا اصلح الرجال للوظيفة التي عينته فيها ، فهو بارع في الحساب وفي مسك الدفاتر كما تعلم . وهو رجل اجتماعي يعرف كيف يعامل الناس ويرضيهم . صحيح ان منيبا كان فيه شيء بسيط من حب الاعتداء وانشاء علاقات غرامية سطحية مع النساء مثل كثيرين من الرجال ، ولكنه الان غيره في الامس . لقد غدا الان رجلا متقدما في السن مسؤولا عن اسرة عديدة الافراد . لذا اصبح اليوم هادئا رزينا . زال عنه الطيش ، وفارقه حب الخصام. ان الناس يتغيرون يا صديقي . الظروف هي التي تغيرهم . ان الانسان كتلة من الحساسية والفكير والتمييز مبنية على كتلة من المخ واللحم والعظام والاعصاب . امنحه فرصة . دعه يسلك طريقا آخر غير الطريق الذي سلكه من قبل . انه يعول اسرة كبيرة ويتحمل مسؤوليات جساما . فان تخليت عنه هلك . انني اؤكد لك انك سترى منه ما يسرك . فأرجوك الا تستبدل به رجلا اخر . لا تصغ الى كلام اولئك الوشاة . لقد كانوا مبالغين فيما وصفوا به منيبا . وانا كفيله».

حينما قابل منيب ذلك الوسيط طمأنه هذا واعلمه انه اعيد الى الوظيفة التي فقدها . ولكن احد اصدقاء مدير المصنع انبأ منيبا ان المدير ما زال مصرا على تعيين رجل اخر بدلا منه . فحار في امره ، ولم يدر ماذا يصنع . ووقع في يأس مميت . غير أن زوجته لم تيأس . فكرت في الامر مليا . وأخيرا اهتدت الى فكرة ايقنت أنها صائبة. رأت ان تقنع ابنتها غادة ، وهي فتاة في التاسعة من عمرها ، ذات ذكاء ولباقة ، أن تواجه مدير مصنع الجوارب وتقيم له البرهان على ان والدها رجل طيب حميد الاخلاق والسلوك . مانعت الفتاة في ذلك أول الامر ، ولكنها لم تلبث ان نزلت على رغبة امها وخضعت لمشيئتها ولا سيما ان الاسرة مشرفة على الفقر والجوع .

نقرت غادة باب غرفة مدير مصنع الجوارب بأصبعها الفضة نقرا خفيفا . فأنصت المدير بكل انتباهه. ان النقر هذه المرة يختلف عن النقر الذي تعود سماعه . نقر لطيف مهذب .

ـ تفضل !

وفتح الباب عن وجه غادة . وقفت في الباب في خفر وحياء . وجه يضوي املس لم يمر عليه الزمان بعجلاته الثقيلة بعد . وعينان معتمتان النظرات تعودتا رؤية زميلاتها من تلميذات المدرسة . وفم مطبق الشفتين لم تتفتح فيه الجراة بعد . وشعر ارتفع على رأسها كأنه منطاد يهم بالطيران . وساقان صغيرتان كساقي دمية من الحلوى . كانت ملابسها بسيطة ، ولكنها نظيفة ومرتبة ومنسجمة مع جسمها النحيف الصغير .

لم يكد نظر مدير المصنع يقع عليها حتى قال لها في رقة ولطف :

ـ تفضلي !

القت غادة تحية الصباح ، ثم خطت في تردد وهدوء وخفة . ثم اشار لها المدير الى كرسي امامه . فجلست عليه . القى المدير عليها نظرة رزينة ، وقال بصوت منخفض عميق :

ـ ماذا تريدين ؟

(ان هذا مصنع وليس مدرسة . فما دخولك اياه ؟) .

واجابت غادة وهي تقاوم حياءها ناظرة بعيدا عن عينيه :

ـ ان منيبا والدي .

ففكر المدير برهة ، ثم فتح عينيه في دهشة واهتمام وقال :

ـ اهلا وسهلا !

ثم عبثت غادة بثوبها المدرسي بابهامها وسبابتها مطرقة الى الارض حياء . وبعد ذلك رفعت نظرها الى المدير وقد شعرت بأن شيئا من الجراة بدأ يغشى قلبها الفتي ، وقالت وهي تنظر اليه نظرة حزينة مؤثرة :

ـ لقد علمت انك وظفت ابي في مصنعك ثم عدلت فاستغنيت عنه .

(لقد ظلمت ابي يا حضرة المدير . ان ابي رجل مسكين يعول اسرة عديدة الافراد . ما كان لك ان تستغني عنه . انه رجل ذكي وطيب القلب . انني احبه وكذلك امي واخواتي . كلنا نحبه . كل الناس يحبونه . وهو بارع في الحساب . فلماذا استغنيت عنه ؟ لماذا عدلت عن استخدامه عندك ؟)

فسرح المدير بصره المستطلع في وجهها الحزين ، ثم قال بعد برهة من الصمت والتفكير كأنه لا يرغب ان يخوض معها حديثا عن ابيها :

ـ من ارسلك الي ؟

(هل ابوك هو الذي أرسلك الي؟)

شعر ان الفتاة احست بنخسة مفاجئة في قلبها اذ غشي جبينها قليل من العبوس . انها لم تكن تتوقع منه ذلك السؤال . كانت تتوقع أن يطمئنها ويعدها في الحال باعادة والدها الى الوظيفة التي فقدها . اعملت الفتاة فكرها قليلا، ثم قالت كاذبة وقد احمر وجهها حياء :

ـ لا احد . انا جئت من تلقاء نفسي .

(امي هي التي ارسلتني . ولكنني لا اريد ان افضحها لئلا تعاقبني على ذلك) .

غواص الخليج العربي

شبح تصارعه الرياح وعزمه	ترتد عنه زوابع وقساور
لا يرهب الحيتان وهي مخيفة	وسلاحه في البحر عزم ثائر
ورث اقتحام الهول من (فينيقيا)	ابدا فهانت ابحر ومخاطر
يصطاد في القعر الخفي بكفه	دررا فيجني الربح منها تاجر
نال الخلود من الطموح ورده	عن مترفات العيش دهر جائر
اما الشتاء فيستقر بأرضه	حينا واما الصيف فهو مسافر
ما تمتمت تلك الشفاه (بنهمة) (١)	الا لها في القلب معنى حائر
والعين في الافصاح يعرف سرها	قبل الكلام ورب خاف ظاهر

(١) النهمة لحن من الحان الغوص معروف في البحرين والكويت وسواحل عمان

البحرين — احمد محمد الخليفة

فأراق المدير على وجهه ابتسامة لتشجيعها على الحديث في حرية وانطلاق وقال :

ــ واذن فقد اتيت لتدافعي عن ابيك . حسن ! انني على استعداد للاستماع اليك . أنك فتاة صغيرة السن . ولا شك انك تنطقين بالصدق والصراحة .

(ان ملامح وجهك تنم عن ذلك) .

فابتسمت في حياء ، وقد مالت بوجهها الى ناحية ، وقالت متشجعة وهي تنظر الى عينيه :

ــ أرجوك يا حضرة المدير أن تعيد ابي الى وظيفته التي خسرها . انه رجل ذكي وطيب القلب . كلنا نحبه : انا واخوتي وامي . وما دام موفقا في حياته البيتية فلا بد ان يكون موفقا كذلك في حياته الخارجية ، فقد جاء في درس تلقيته في المدرسة ان المنزل عالم صغير والدنيا عالم كبير وان الرجل الذي يوفق في ادارة عالمه الصغير يفوز بالنجاح في عالمه الكبير .

(من ذلك تستنتج أن ابي يصلح موظفا في مصنعك . وخير لك ان تعدل عن قرارك وتعيد ابي الى وظيفته ، فقد تصرفت تصرفا خاطئا يا حضرة المدير) .

لم تكد غادة تتم كلامها حتى قهقه المدير سرورا ومعجبا بكلامها ثم قال :

ــ واذن فكلكم تحبونه .

(اني استغرب كيف يبغضون اباك في الخارج . لعل اولئك الوشاة أعداء له) .

فقالت في حماسة وتأكيد :

ــ ان الناس جميعا يحبونه . انه بقال محبوب . اصدقاؤه ، وهم عديدون ، يضغطون جرس باب دارنا دائما ، ويسألون عنه . وهذا دليل على انهم يحبونه . اليس كذلك يا حضرة المدير ؟ هذا برهان على ان ابي موفق في الخارج كما هو موفق في المنزل .

فابتسم وقال مداعبا :

ــ ولكن المصنع غير حانوت البقول . ان عمله الرئيسي هنا هو الحساب لا البيع .

(سأعيده الى الوظيفة من اجلك لانك لبقة وذكية . لقد ملأت قلبي عطفا) .

فقالت وهي تحرك يدها حركات تعبيرية :

ــ ان ابي ماهر في الحساب . له موهبة فذة في الحساب . انه يحل لي أصعب المسائل الحسابية التي في كتاب الحساب . ومعلمة الحساب شديدة الاعجاب بي لان اجابات والدي كلها صحيحة .

فقهقه المدير ثانية وهو يهتز على كرسيه ، ثم قال وهو يهز رأسه :

ــ حسن ! حسن ! اعدك ان اعيد اباك الى وظيفته . فأعلميه بذلك .

فأشرق وجه غادة ابتساما وقالت :

ــ اشكرك يا حضرة المدير ! شكرا جزيلا لك يا سيدي !

(أصوات من الداخل : ما اطيب قلبك ايها المدير ! ادامك الله لزوجتك واولادك ! البشرى لك يا والدي ! طيبي نفسا يا امي فقد اعيد ابي الى وظيفته) .

(منظر في الداخل : تدخل منزلها وهي ترقص فرحا وتصيح بملء فيها قائلة : هاي ! هاي ! لقد نجحت ! لقد وظف ابي !)

ثم انها نهضت من مكانها وحنت راسها قائلة :

ــ استودعك الله يا سيدي !

ــ مع السلامة !

وبعد مرور شهر من تاريخ تعيين منيب سأل مدير المصنع المراقب : اراض انت عن منيب ؟ فأجابه في سرور : كل الرضى .

عمان — عبد الحميد الانشاصي

الى بني وطني

في ذكرى الخامس من حزيران التي لا نود لها ان تعيش اكثر

•

بني وطني هبوا ببيض الصفائح
فقد آن للاحرار ذبح الذبائح

وقد آن للابطال ان يصبغوا الحمى
بفيض نجيع طاهر السكب فائح

ذكي كان المسك ابان ودقه
يفوح عبيرا من شذي الروائح

فان يك فينا الخصم قد شام ذلة
وراح يشد الذيل شدة رامح

وقد نسي الخصم الجبان بأننا
ركبنا خيول الدهر من كل جامح

عشية قدناها سراعا الى الوغى
بفرسان صدق فيهم كل صالح

اباة اولي عزم شديد وحكمة
وعقل سديد الرأي بالحلم راجح

فشدوا الى الهيجا على كل ضامر
وطيروا الى الجلى على كل قارح

وكونوا غداة الثار جيشا عرمرما
خميسا عليه كل شهم مكافح

وغفوا اذا دارت رحى الموت والوغى
على هامة الاعداء مثل الجوارح

فأنتم قروم من أصول عريقة
لها ذكريات فوق هذي الاباطح

سيوف بني مروان تلكم سيوفكم
تمد بها أيدي رجال جحاجح

فان تنتضوها تنتضوا كل صارم
يشق عظام الرأس حتى الجوانح

فلا تتركوها للبلى ان خطبنا
عظيم وليس الخصم فينا بمازح

بني وطني قد قمت بالامس ناصحا
واني لاسدي اليوم خير النصائح

فهيا نلم الشمل يا آل يعرب
ففي لم شمل العرب نجح لناجح

وفي الشمل ملتما مضاء وعزمة
تطيح الاعادي فوق هام الصحاصح

وتترك هام الشر مصبوغة دما
وفاغرة فاها بطرف مشايح

ونحن أناس ما افترينا عليهم
ولكنهم قاموا بشتى القبائح

فقد أزهقوا منا نفوسا كريمة
وعاثوا بأعراض الثكالى النوائح

وهم قتلوا طفلا بريئا وغارة
وهم شردوا بالامس مليون نازح

فلا تأخذنكم رحمة بعدوكم
فأن بني صهيون شعب الفضائح

بني وطني هذي تباشير نصركم
تلوح بوجه مشرق جد واضح

تهيب بكم ان تحرزوها عزيزة
بكل فتى للهول ندب منافح

أبي يعاف العار حتى كأنه
غداة احتدام الروع شبل الصمادح

فان تحرزوها تكتبوا الخزي للعدا
وللعرب الاحرار زهر المدائح .

دمشق

خليل خلايلي

مكتبة الاديب



عباس محمود العقـــاد

تاليف عبد الحي دياب ـ ٨٧٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافـة بالقاهـرة

لعل أبرز الجوانب في أدب المرحوم عباس محمود العقـــاد هو جانب النقد، وهل الادب الا نقد الفكر في اطواره والحياة في ظواهرها وخفاياها ؟ فقد بدأ هذا الاديب العملاق حياته الفكرية ناقدا ثائرا ، ولم تعجبه آثار الادباء المضعوفين والمتكلفين في عصره ، وكان هذا العصر يجر أذيال التقليد والترديد في فنون القول والتعبير وينفض عن منكبيه أعبـــاء ماضيه في الصناعة اللفظية ولما اتسعت آفاق الفكر عند العقاد وأحـاط فهما وعلما بثقافة الغرب وباللغة الانكليزية ومذاهب الفن والنقد فـي ادب العالم هبت ثورته بالزيوف والمحاكاة مشاركا صديقيه عبد الرحمن شكري وابراهيم عبدالقادر المازني في الحملة على الشعراء والكتاب الذين سموهم مقلدين ووصموهم بأشتات النعوت .

واذا عدنا اليوم الى « الديوان » الذي جمع نوادرهم في النقد العنيف ونظرنا اليها بروح الزمن الذي نعيش فيه وجدنا اندفاع العقاد وصاحبيه في النقد بأقلام حداد كالمعاول ان صح هذا التشبيه ، ولكم يصح في بعض الاحيان والاطوار ، ورب قلم صنع ما لم تصنع المدافع في التدمير والتنكيل ، غير ان الادباء الذي انصبت عليهم ضربـــات النقد في تلك الحملات الثلاثية كانوا جسرا لادبنا الحديث ، فشوقي وحافظ والمنفلوطي تلقوا ذلك النقد العنيف بتحدي ذويه ماضين فيمـا أخذوا به أنفسهم وتجاربهم محاولين التطور في تفكيرهم والاجادة فـي تعبيرهم بما كان يستسيغ ذوق العصر ووعي القراء ، فبقيت آثارهم تبني وتستهوي على الرغم من ذلك النقد الهادم الذي شيد به العقـاد وصحبه مدرستهم الاولى في الحركات الادبية المعاصرة ، وقد جمـــع كتاب « الديوان » صورا من حملاتهم المشهورة ، وبقي العقاد وحده فـي المعارك بعد ان غاب زميله شكري واتخذ المازني سبيلا جديدا في أدبـه وأسلوبه ، وكانت حياة العقاد في آثاره شامخة الجبهة متعددة المعالم لكن النقد فيها كان أبرز ما ميزها من غيرها حتى عرف صاحبها في مصر والعالم العربي بصاحب مدرسة النقد الادبي الحديث على طريقته فـي التحليل والتنقيب ، ومثل بطل خاض معارك الدماء خاض العقاد بقلمـه ورأيه معارك النقد أكثر من نصف قرن وابتلي بخصوم الداء لـم يكفوا عن اذاته ويلقي ضرباته حتى ألفوا الكتب في التشنيع عليه والتنقص من مكانته ، فلما غاب وجهه وبقي أدبه تحول بعضهم الى معتزين بنبوغه ومجهوده ، وبعض آخر اصطنع شجاعة وبراعة في الغض من قدر العقاد .

وهذا المـوج الصاخب من النقد الادبي الحديث الذي رافـق الحركات الفكرية والتعبيرية لم يكن أكثره موسوما بطابع التجـرد ، اذ غلبت عليه النزعات الذاتية ، لكنه علـى عنفه وأهدافه قد أفـاد الحياة الادبية ومنحها الحركة والتنافس والانطلاق ، على ان العقـاد فيها كان فارس المعارك حتى استراح في ثراه .

وما كادت « أسوان » منبته ومـأواه تضمه في ثراها حتى هبت أقـلام الادبـاء والاصدقاء تكرم ذكراه وتحيـط بأدبه من جديد في دراسات ومؤلفات كان من أفواهـا وأوفاها كتاب جامعي ضخم الحجم والمحتوي ، ألفه أديب من الشباب العربي الصاعد فـي مصر هو الناقد الموهوب عبد الحي ديـاب الذي اتصل بالعقاد منذ كان طالبا لم تفتـه ندوة من ندواته الاسبوعية او لفتة من لفتات العقاد الى كل ما جد بمذاهب النقد والادب، فاطلع على خطى العقاد في نقداته منذ ابتدأ يشارك افراده في هـذا الجانب القوي من جوانب أدبه ، وقد تناول الاديب دياب في بحثـه القيم طريقة العقاد في النقد وانفراده بفلسفة فيه تربط النتاج بذات الكاتب او الشاعر ، فكان في هذا الاتجاه سباقا الى منهاج في النقـد مشى فيه قبل أن تأخذ به وبغيره الدراسات الجامعية في مصر والبلاد العربية ، ولا ريب في ان الباحث الجامعي مؤلف هذا الكتاب قـد لقي المتاعب والمتاهات في هذه الدراسة الواسعة المترامية الاطـراف والابعاد ، على ان ايمانه بتفوق العقاد وسبقه الى هذه الناحية البارزة في أدبه لم يجعله منساقا برضاه عما صنع العقاد فيها حتى مـلاها ، فان الباحث المحقق قد اصطنع المنهج العلمي الذي اقتضاه الموضوع قدر الطاقة في التجرد والحيرة ، فكان تارة موافقا وتارة مخالفا وكان لا مناص له من الرجوع الى بواكير النقد والنقاد في تاريخ الادب الحديث واتجاهات التجديد عند العقاد وافادته من ثقافة الغرب وأدبه في تطبيق ما راقه من المذاهب النقدية .

وفي الباب الاول من هذا الكتاب تناول المؤلف ميراث النهضـة المعاصرة في النقد الادبي وموقف العقاد منه ، وحركة التطور فيــه واسبابها ، وكان واسع الافق في حديثه عن الاسس الجمالية عنـد العقاد ومفاهيمها وقد كرر القول في ان نقد العقاد للشعر قديمـه وحديثه كان ممتدا متجددا ثم جاء على مناهج العقاد في الدراسـة الادبية ، فمن التحليل النفسي الى أثر العصر في تكوين الشخصيـة ثم المنهج التجريبي او العلمي الذي اصطنعه العقاد لاستنباط الحقيقة وكشف الزيف والتلفيق .

لقد جاء بحث الاديب دياب مؤلف هذا الكتاب واسعا ضخما اذ اضطرته طبيعة البحث والاستقصاء للشرح والتفصيل والاستطـراد ، ولا يعاب الاستطراد في تشعب الدراسة للاحاطة بالموضوع حسب النهج الموضـوع .

ولكن هل كان على المؤلف حرج لو جاء كتابه هذا بنصف حجمـه اذن لشجع على قراءته غير المعنيين بالدراسات الجامعية وهل تتطلب التطويل والتفصيل في كل موضوع ، والقراء اليوم بعصر السرعـة وضيق الانفاس ، فالكتاب الضخم كالبحر الكبير يتهيب المرء الخوض فيه وبوسع أي باحث متمكن كالاديب دياب أن يستوعب موضوعه مـن كافة نواحيه فيجعله موجزا مركزا دون ان تفوته نقطة او فكرة ولكـن يبدو ان الدراسة الجامعية تحتفي بالضخامة وهي سنة غير مستحبـة وقديما قيل خير الكلام ما قل ودل .

وقد اطلعت على أمثال هذا البحث الذي اقتضى الرجوع الـى عديد من الصحف والمجلات والرسائل فكـان من جرائـه الاطالـة والاستطراد ، وكان المرجو في كل دراسة حديثة ان تستجيب لمطالب العصر وبخاصة اذا كانت محددة المعالم مقيدة بالمنهاج الجامعي الـذي يؤثر الفكرة متسلسلة متماسكة ، ويتجافى عن الحشو والتكرار .

واذا ضفت تبعة المؤلف فيما اضطر اليه فما الصق التبعـة بالمشرف على البحث ، وقد نلتمس للمؤلف عذرا فنقول : كان العقاد كبيرا فجاء فيه الكتاب كبيرا ، وما اجدر صبر الباحث على هـذه

الدراسة الجدية الطويلة بشكر العلماء والادباء ، ولو ان الارواح تتجسد بعد موت اصحابها لاقبلت روح العقاد على هذا الكتاب تقرأ فيه نفسها مبتسمة راضية وكان العقاد يحب الرجعة الى الدنيا أفلم يؤلف كتابه « رجعة ابي العلاء » فيعيده الى الحياة ، والعقاد نفسه لم يمت فمن يؤلف في مذهبه النقدي مثل هذا الكتاب يكن خالدا ويرجع دوما الى الحياة .

دمشق — وداد سكاكيني

•

تطوري الفلسفي

تأليف برتراند رسل ـ ٢٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبوعات جورج الن وانوين بلندن

تتدرج اعمال الفيلسوف البريطاني برتراند رسل بين الكتابة الاكاديمية الصرفة التي لا يفهمها الا اصحاب العلاقة وبين كتابة الكتب العلمية والفكرية المبسطة التي يطالعها الجميع ، والكتاب الذي نقدمه هو من النوع الاول .. يتناول فيه رسل المراحل التي اجتازتها فلسفته خلال تطورها ، وقد لبث اكثر من ستين عاما يؤلف في الفلسفة تأليفا متصلا حتى بلغت مؤلفاته بضع عشرات من امهات الكتب ، وكان محالا ان ينتهي آخر الشوط الطويل الى نفس ما بدأ به . فهو فيلسوف يحمل في ثنايا فلسفته التقليد الفلسفي ، وهو معاصر مجدد ، وبناءا على ذلك يتحمل كل ما ينجم عن موقفه هذا من مشكلات ومفارقات . فبالرغم من انه مؤمن بالنسبية ، الا انه يبحث عن حقيقة مطلقة ، وبالرغم من أنه مؤمن بضيق الخبرة الانسانية بازاء انساع الكون ، الا انه لا يجد بداية سواها للعلم والمعرفة ،وبالرغم من انه يشعر بضآلة الانسان بالنسبة لرحابة الكون ، الا انه لا يجد سواه شيئا ذا قيمة . والقارىء لفلسفته لا يمكن ان يفوته ثنائية تسري في تفكيره : بين الواقعية والمثالية ، المادية والتجريبية ، الموضوعات الخارجية والانطباعات الداخلية . وهي ثنائية يحاول ان يحلها باقامة جسر يمتد بين طرفيها مستعينا في ذلك بالمنطق الرياضي .

ويرجع رسل أصل اهتمامه بالفلسفة الى مصدرين : فقد كان همه ان يكتشف ما اذا كان في امكان الفلسفة ان تقدم لنا دفاعا عما يمكن ان نسميه بالعقيدة الدينية ، مهما كانت غامضة المعالم ، وقد أراد من ناحية اخرى ان يقنع نفسه باننا يمكن ان نعرف شيئا ، في ميدان الرياضة البحتة ان لم يكن في غيرها . وقد فكر في هاتين المشكلتين كليهما أثناء فترة المراهقة ، وحده ودون عون كبير من الكتب. وقد بدأ يفكر في المسائل الفلسفية وهو في الخامسة عشر من عمره ، ومنذ ذلك الحين الى ان التحق بجامعة كمبردج بعد ذلك بثلاثة اعوام، كان يفكر بمفرده ، ومن قبيل الهواية ليس الا . فلم يكن قد أطلع بعد على أي كتاب فلسفي ، حتى قرأ « منطق » ميل في الشهور الاخيرة قبل التحاقه بكلية ترينتي . وكانت الرياضة تشغل معظم وقته، وتسود الى حد كبير محاولاته الاولى في التفكير الفلسفي . لكن الحافز الوجداني الذي دفعه الى التفكير ـ كما يقول ـ كان على وجه الخصوص في العقائد الدينية الاساسية . الا انه أضمر شكوكه اللاهوتية ، لا لانه كان يجد في الدين طمأنينة فحسب ، ولكن لانه شعر ايضا ان هذه الشكوك اذا ما اعلنها ، سوف تسبب له الالم ، وتجلب عليه السخرية. لذلك ازداد وحدة وانفرادا . وقبل عيد ميلاده السادس عشر وبعده مباشرة ، كتب بعضا من اليوميات التي تناول بها ما كان يؤمن به وما

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

كان ينكره مستخدما أحرف الهجاء اليونانية ، وقواعد التهجي في علم الصوتيات حتى يخفي شكوكه .

وما ان انتهى من مرحلة الدراسة حتى تحول الى مرحلة التأليف، وقد كرس هو ووايتهد طيلة اعوام ١٩٠٠ الى ١٩١٠ في العمل الذي صار فيما بعد كتاب برنكيبيا ماتماتكا . ويمكن القول ان وايتهد ترك لرسل المشكلات الفلسفية واخذ هو المشكلات الرياضية ، حيث وايتهد هو الذي ابتكر الجانب الاكبر من الرموز ، الا ما كان ماخوذا عن بيانو. لكن رسل قام بالجانب الاكبر من العمل المتعلق بالتسلسلات ، وقام وايتهد بالباقي . غير ان هذا لا ينطبق على المسودات الاولى ، لان الاثنين اعادا كتابة كل جزء من الاجزاء ثلاث مرات ، وكانا كلما الف واحد منهما مسودة اولى ، أرسلها الى الاخر الذي كان يعدل فيها عادة الى حد كبير . وبعد ذلك يقوم من كتب المسودة الاولى بصياغتها الصياغة الاخيرة . لذلك لا يكاد يوجد في المجلدات الثلاثة سطر واحد لم يكن انتاجا مشتركا بينهما .

كان الهدف المبدئي من برنكيبيا ماتماتكا هو اثبات ان الرياضة البحتة باكملها تترتب على مقدمات منطقية خالصة ، وانها تستخدم مدركات عقلية لا يمكن تعريفها الا على اساس من المنطق . وكان هذا الرأي بطبيعة الحال نقيضا لنظريات كنط . بيد ان الكتاب – بمرور الزمن – قد تطور في اتجاهين مختلفين . فمن ناحية الرياضة ، تكشفت لهما موضوعات جديدة باكملها تتضمن وسائل جديدة لضبط القياس العددي ، تتيح لهما ان يتناولا بالرموز الدقيقة امورا تركت من قبل نهبا لما في اللغة العادية من تطويل وعدم ضبط . اما من الناحية الفلسفية ، فقد كان هناك تطوران متعارضان : أولهما تطور سار ، والاخر تطور مكدر . وقد خاب أمل الفيلسوفين ، لان احدا لم ينظر الى كتاب برنكيبيا ماتماتكا الا من زاوية فلسفية . فقد اهتم الناس بما قالاه فيه عن التناقضات وبمسالة ما اذا كانت الرياضة العادية قد استنبطت استنباطا صحيحا من مقدمات منطقية بحتة . ولم يهتم الناس بالتكنيكات الرياضية التي طوراها في سياق الكتاب .

وقد تناول هذا الكتاب فيما بعد كبار العلماء والفلاسفة بالنقد ، منهم رامزي وفتجنشتين وغيرهما . وفي رأيي ان في فلسفة رسل مجموعة من الاخطاء ، التي لا ينكر هو ذاته انه قد يكون مخطئا بها ، ولعل هذه الاخطاء تستمد مصدرها من خطأ اساسي وقع فيه في مرحلة مبكرة من مراحل تطوره الفلسفي وكان له اثر حاسم في سائر مراحل تفكيره . هذا الخطأ هو توحيده بين المثالية والواحدية . فقد اعتقد منذ ثورته على هيغل وكنط أن ثمة مرادفا بين هذه وتلك .

على ان الاخطاء التي يتورط فيها فيلسوفنا مرتبطة بخطأ ثان يتعلق بالمنهج فمنهجه هو التحليل . والتحليل لا غبار عليه في ذاته ، أي اذا وضعنا في أذهاننا على الدوام انه مجرد اداة لفهم الظاهرة موضوع التحليل ، وانه لا يصلح تفسيرا للظاهرة او تصورا لها . فرسل يقول انه وجد نقصا في التحليل قد سلم الناس بمقادير هائلة من الاستدلال غير البرهاني ، لان لديهم تحيزا ذاتيا في صالح انواع معينة من المعرفة ، وانهم قد رفضوا مقادير اخرى منه نتيجة تحيز مضاد . وقد بدا له أن على المرء في أي حالة جزئية من حالات الاستدلال الذي يبدو غير قابل للشك – عليه ان يكتشف المبدأ الذي تقوم عليه الحالة. وأن يقبل استدلالات اخرى تقوم على نفس المبدأ . وقد اكتشف ان جميع الفلاسفة تقريبا قد أخطأوا بصدد ما يمكن ان يستدل من الخبرة وحدها وما لا يمكن . على أن رسل قسم مشكلة المعرفة التجريبية الى مراحل ثلاث : (١) معرفة عن نفسه (٢) معرفة عن عقول الاخرين – وتتضمن شهادة الغير (٣) معرفة عن العالم الفيزيقي . ولما بدأ بالمعرفة التي عن نفسه ، وجد ان مذهب انحصار الذات في نفسها كما يشرح عادة يقر قدرا كبيرا من المعرفة لا يتفق وذلك الحذر الذي يلهم مثل هذا المذهب .

ان قدرا كبيرا مما نقله دون شك فيه بوصفه معرفة – هذا القدر يقوم على شهادة الغير ، وشهادة الغير بدورها تقوم على اعتقادنا بان هناك عقولا اخرى غير عقولنا . ووجود عقول اخرى لا يبدو للفهم المشترك عرضة للشك .

ويتناول رسل بعد ذلك الحوادث الفيزيقية البحتة . خذ على سبيل المثال ما لدينا من مبرر لنؤمن بموجات الصوت . فاذا حدث انفجار مدوي في موضع ما فان الزمن الذي يسمع فيه أشخاص مختلفون صوت ذلك الانفجار يتوقف على بعدهم عن ذلك المكان . ونحن نعتقد أنه يستحيل علي التصديق ان يمر هؤلاء الناس المختلفون الذين هم في أزمنة مختلفة بخبرة الاستماع الى صوت مرتفع ، ما لم يكن هناك شيء ما يحدث في الاماكن المعترضة . ذلك ان مجموعة من الحوادث في أماكن كانت فيها اذان ، مصحوبة بانعدام شامل لحوادث ترتبط بها في سائر الاماكن يبدو لنا من الغرابة بحيث لا يمكن ان نصدقه . بل ان هناك مثلا ابسط من ذلك هو دوام الاشياء المادية . فنحن لا نستطيع ان نصدق ان جبل افرست ينعدم عندما لا يراه احد ، او ان حجراتنا تتلاشى في فرقعة حينما نغادرها . ليس هناك من سبب يدعونا الى ان نؤمن بمثل هذه السخافات . فالمبادىء التي تدفعنا الى ان نرفضها هي ذاتها في حقيقة الامر المبادىء التي تدفعنا الى ان نؤمن بأن أشياء قد حدثت لنا مع أننا نسيناها الان .

وليس العلم وحده ، بل ثمة قدر كبير من الفهم المشترك أيضا يعنى بالقوانين العامة لا بالحوادث الفردية . الا اننا نستدل معرفتنا بالقوانين العامة – اذا كانت تجريبية – نستدلها على نحو صحيح او غير صحيح من معرفتنا بعدد من الحوادث الجزئية . فالكلاب تنبح قانون عام ، لكن ما كان للناس ان يعرفوه لو لم يسمعوا كلابا بعينها تنبح في مناسبات بعينها . ولقد وجد رسل ان معرفتنا بمثل هذه الحوادث الجزئية تثير مشكلات لم يعرها بعض الفلاسفة – والوضعيون المنطقيون خاصة – ما يكفي من الاعتبار . غير ان هذه المشكلات ليست هي المشكلات المتضمنة في الاستدلال غير البرهاني ، ما دامت الاستدلالات التي نحن بصددها لا يمكن ان تكون مشروعة الا بفضل قانون عام من قبيل ما نستخدمه عندما نستدل وجود كلب من سماعك نباحا . والقوانين التي يسعى اليها العلم هي في الغالب الاعم قوانين سببية بمعنى عام .

ان المبادىء العامة اللازمة لتدعيم الاستدلالات العلمية غير قابلة للبرهان باي معنى مألوف . فهي مستخلصة بالتحليل من حالات جزئية تبدو واضحة كل الوضوح مثل تلك الحالة التي يملي فيها (ا) على (ب) . ذلك أن هناك تطورا تدريجيا مما يسميه رسل بالتوقع الحيواني حتى أرقى قوانين الفيزياء الكمية . فالعملية بأسرها تبدأ من وقوع الحادثة (ا) في الخبرة ، وتوقع الحادثة (ب) . اذ تقع للحيوان في خبرته رائحة بعينها ، فيتوقع ان يكون الطعام صالحا للاكل . فاذا كان من المعتاد ان يخطىء في توقعه ، كان لا بد ان يموت . ويؤدي التطور والتكيف بالبيئة الى ان تكون التوقعات في أغلب الاحوال

صائبة أكثر منها خاطئة ، بالرغم من ان التوقعات تتجاوز نطاق كل ما يمكن البرهان عليه منطقيا . فيمكننا ان نقول ان للطبيعة عادات معينة ، ولا بد لعادات الحيوان من ان تتكيف على نحو معين بعادات البيئة لكي يواصل الحيوان بقاءه .

وهذه الحجة ستكون واهية اذا ما اتخذناها ضد الشك الديكارتي . لكنني لا اعتقد ان من الممكن ان ننتقل خطوة واحدة اذا نحن بدأنا من الشك . فعلينا - كما يشرح برتراند رسل - ان نبدأ من تسليم عريض بكل ما يبدو أنه معرفة أيا ما كان وانه ليس ثمة سبب معين لرفضه . فالشك في الفروض الاساسية نافع في عملية التشريح المنطقي ، اذ يمكننا من ان نرى الى أي حد نستطيع ان نمضي في استدلالاتنا بدون هذه المقدمة او تلك - مثال هذا اننا نستطيع ان نتساءل ما الذي يمكننا اقامته من الهندسة بدون بديهية الخطين المتوازيين . لكن مثل هذا الشك لا يكون نافعا الا في مثل هذه الاغراض

يصرح رسل في آخر فصول كتابه الذي بين ايدينا ان الرياضة لم تعد تبدو له غير انسانية في مادة بحثها . اذ اصبح يعتقد - وان كان هذا على كره شديد منه - ان الرياضة تتألف من تحصيلات حاصل . وانه ليخشى ان الرياضة باسرها قد تبدو لعقل على قدر كاف من القوة تافهة تفاهة العبارة التي تقول ان حيوانا ذا أقدام أربع حيوان . وأعتقد ان ما تتصف به الرياضة من لازمانية ليس له من السمو ما قد بدت له به في يوم من الايام ، وما قوام هذه اللازمانية الا كون الرياضي لا يتحدث عن الزمان . ولم يعد بوسعه ان يجد أي رضى صوفي في تامل الحقيقة الرياضية .

هذا الكتاب الذي نحن بصدد عرضه من احسن الكتب التي كتبها فيلسوف في شرح تطوره الفلسفي ، وقد كان من المتعذر على المشتغلين في ميدان البحث الفلسفي ان يتبعوا رسل في تطوره المستمر على مدى حياته العلمية الطويلة ، حتى قام هو نفسه بما يتعذر على سواه القيام به ، فوضع لنا هذا الكتاب الذي اسماه تطوري الفلسفي .

دمشق سمير عبده

فن الشعر الملحمي ومظاهره عند العرب

تاليف احمد ابو حاقة - ٢٠٠ صفحة - طبع ببيروت

شعر الملاحم فن جديد يدخل حديثا أدب العرب المعاصر ، اذ لم تكن الملاحم معروفة بمعناها الحربي فيشعرنا القديم ، وبخاصة في الشعر الحماسي . ولم ترد كلمة الملحمة دليلا على قصيدة كبيرة مخصوصة بوصف الحرب والجلاد ، حتى ان الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، حين ذكر هوميروس لم يعن بوصف الالياذة على انها شعر حربي ولا وصفها بالملحمة وانما اكتفى ان يضم صاحبها الى الفلاسفة فاخذ ببعض حكمه ومواعظه التي وردت في شعره .

وحين اخذت بالتحري عن اسم الملحمة لم أجد أبعد وأعلى في التقصي مما ذكره الرسول محمد صلوات الله عليه ، بقوله « انا نبي الحرب والملحمة » . وقد اراد ان يضم كلمة « الملحمة » الى الحرب ، لان لغة العرب تدل في شرحها لهذا اللفظ على ان الملحمة مشتقة من امتزاج اللحم بعضه ببعض من شدة المقتلة والتذابح . ومن غريب ما رحت اجده في أيامنا هذه ان الجزارين يسمون دكاكينهم «بالملاحم» فيضع احدهم لافتة عليها مثل هذه العبارة « ملحمة الصالحية » .

لكن ادب عصرنا المغنى راح يضيف في دراساته مسميات جديدة منها كلمة الملاحم ، فيجعلها علما على القصائد الغر الطوال التي تسجل حروب الامم وتحشد في حوادثها تهاويل واساطير في الجن والخوارق ، كما جاء في ملحمة الالياذة لهوميروس وملحمة الرامايانا والمهابهاراته الهنديتين وملحمة الشاهنامة الفارسية لابي القاسم الفردوسي .

ومن بديع ما ظهر في دنيا أدبنا الحديث من الدراسات المكينة الموفقة في ادب الملاحم : كتاب الاستاذ الكبير احمد أبو حاقة الذي سماه « فن الشعر الملحمي ومظاهره عند العرب » . ولقد توقدت همته لابراز هذا الفن الجديد الذي لم يكتب له نصيب من العناية الا في القليل من امره .

وكم أود ان أقف عند كلامه على خلو شعر العرب من الملاحم وفيم لم تظهر الملحمة في العصر الجاهلي ، فتردني هذه الوقفة الى كتاب الاديب العظيم عباس محمود العقاد - رحمه الله - حين الف كتابه الاخير « أشتات مجتمعات في اللغة والادب » فقد ناقشني فيه هذا النقص في حياة الفكر والشعر العربي حين عقد فصلا ضافيا عن كتابي « شعر الحرب في أدب العرب » (١) . فذهب الى ان العرب لم يطر لهم خيال في عالم الاوهام والخوارق ، وكانت انفاسهم في الشعر محدودة لا تتجاوز مراحل مئة بيت الا في القليل . والظاهر أنهم وجدوا بنظم الملاحم والمطولات ما لا يجدون في أنفسهم جلادا على قوافيها ، اذ كانت قوافي الملاحم اليونانية والهندية متنوعة وليست على وتيرة واحدة كشعر العرب ، فمن للشاعر العربي بآلاف القوافي تنتظم ملحمته . فمن ههنا لم يكن للعرب همة تنهض بنظم الملاحم ، حتى جاء العصر الحاضر فخفف من تسريد القوافي على روي واحد . وكان محط رأيه الحصيف ان موضوع الملحمة لم يكن موجودا في قديم العرب .

ومن البراعة حقا وقد صدر كتاب الاستاذ النابغ احمد ابو حاقة قبل كتاب العقاد ، أن يكون له السبق في ايراد هذا التعليل الذي يناط بروح الملاحم وطريقة نظمها عند العرب وتعودهم عنها للاسباب ذاتها .

وفي أعقاب هذه الخطرات المبكرة عند المؤلف الاستاذ أبي حاقة اخذ يوالي الافتراض حينا ومس الحقيقة أحيانا في معطيات الشعر في العصر الجاهلي ، واجدا أن مواتاة الفن كانت مهياة لنظم الملاحم في عهود الجاهلية اذ كانت المغازي قائمة على قدم وساق بين العرب انفسهم في حروب داحس والغبراء وأمثالها . وفي بطولات العرب

التي كانت مثارا للتفاخر والحماسة الواقدة . وان من رواج الشعر وتداوله الدائم في تلك العهود ما كان يعين على نظم الملحمة لو أتيح لها العرب ، على حين كان تمازجهم باليونان والروم معروفا في الاحوال التجارية ومناسبات الخلطة واللقاء .

ثم اخذ المؤلف بتجواله البارع في دنيا الادب الجاهلي يخرج بنتائج صائبة كتفكك القبائل العربية وخلوحياتهم من حروب قومية مع غيرهم من الامم المجاورة . وهذه الاخيرة هي مناط القول والمعول عليه من الحدثان في أسباب نظم الملاحم . اذ ان العرب الجاهلين لم يجالدوا أمة بحرب قبل « يوم ذي قار » حين نازلوا الفرس فغلبوهم شر غلبة ولو اتيح لشاعر فيهم ان ينظم يومئذ الملحمة لجعل مبادئها من هذا اليوم العظيم الذي أظهر العرب على الفرس . وكان الفرس في منعقد ألويتهم وغفير عديدهم ، في آلة حرب ما عرف مثلها العرب .

وحين مارس المؤلف كلامه على وجود مثل ملحمية في الشعر الجاهلي والشعر العربي عامة تناول الروح الحماسية في وصف البطولات والمعارك فعد ذلك ضربا من الشعر الملحمي ، بل هو القوم الاول للملحمة . ومن ههنا جاء لقراءه بصور بطولية روائع من أعمال البطل الجاهلي والعاشق المفتون عنترة بن شداد الذي يضيف المؤلف شعره وسيرته الى الملحمات الشعبية الفولكلورية .

ولقد وجدتني منساقا الى ترداد هذين البيتين لعنترة مخاطبا معشوقته عبلة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الصفح تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

واذا بالمؤلف الكريم يذكر من المطولة المعلقة العنترية ابياتا كثيرا كل منها يصور موقفا من مواقف عنترة بن شداد في الحرب والعراك تتيه بمثله اشعار الملاحم .

وان في تصوير المودة بين عنترة وجواده لمجالا روحيا في حياة البطولة وشجونها عند قوله فيما أورده المؤلف الفاضل من هذا الشعر :

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا الي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

فطار بي الخيال الى رائعات بطولية مشابهة لدى شعراء القرون الوسطى في أوربة وهم على ظهور خيولهم يهزجون بتحيات لها وأيديهم تمسح اعناقها وتعبث بفررها المنسدلة وهي تنفخ أنفاسها من خياشيمها بعد المعركة . وفي القصة البطولية « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس الابن مشاهد ملأى بالغرام والفداء .

وكان من المؤلف فتح جديد في تبيان الشعر الملحمي في الجاهلية بقصيدة عمرو بن كلثوم التي يقول في اولها :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الاندرينا

فان ما جاء باهجية أحد الشعراء لبني تغلب في قوله :

الهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها ابدا مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسؤوم

يجعلني اقر بان قصيدة عمرو بن كلثوم كان لها من الذيوع والتداول ما لشعر الملاحم يرويها الاباء للابناء ولا يسام الرجال ترداد أبياتها على الدوام .

وتترادف الخواطر الناضجة عند الاديب الموهوب الاستاذ أحمد أبو حاقة حتى يريك كالعيان بطولة الخوارج وفي بهرتهم كبيرهم وقائدهم وقطري بن الفجاءة ولمام الذي يزجر نفسه الواجفة قبيل المعركة ، والذي يخاطب محبوبته « أم حكيم » بشعر يذوب رقة ويثور حماسة حين جمع فيه بين الحب والحرب فيعد المؤلف هذا الشعر لونا من الوان شعر الملاحم في عهود الاسلام ، حتى اذا تحدر ببحثه الكبير الى العصور العباسية وجد المظاهر الملحمية في شعر ابي تمام في قصيدته البائية في وصف معركة عمورية وظفر الخليفة المعتصم فيها فلا يفرط في بيت من أبياتها اذ كانت جميعا تشكل وحدة موضوعية في شعر الملاحم ويرد فيها بتحليل ادبي رفيع ليس فيه حشو ولا تكلف وبعد حماسة أبي تمام يكلل بحثه الحصيف بقصيدة الحدث الحمراء لابي الملحمة العربية القديمة البطل والشاعر الاعظم ابي الطيب المتنبي الذي يميزه شعره وبطولته من سائر الشعراء وأكاد أعد حماسة شعره الحربي غالبة على حماسة الالياذة في وصفها لمعركة طروادة .

ويشوق المؤلف بعد العصر العباسي ان يتقصى وجود الملاحم في الشعر الاندلسي . ويكون بعد كلامه على القصصي الشعبي الذي يعده ملاحم نثرية بحثه الاخير في وجود الملحمة في الادب العربي المعاصر ، فتكون محاولات احمد محرم وبولس سلامة وسواهما بواكير ومقدمات لعهد سوف تبرز فيه الملحمة العربية بقضها وقضيضها وبطولات امتها وأهوالها وبتصوير معاركها مع خصومها ، اذ لا بد من يوم تطل فيه الملحمة العربية المنشودة التي تناص بحق ملاحم الامم القديمة والحديثة . فتضم المجد الغابر الى العز الحاضر ، وتكون عدة العروبة والاسلام في توالي الشهور والعصور .

وكم ترك في خاطري المؤلف النابغ رنين كلامه يدوي في مسرح خيالي اذ أجدني امام تمثال فوزي المعلوف « بزحلة » أعيد أناشيد من ملحمته الفنية « شاعر في طيارة » أو « على بساط الريح » حيث يعده الاستاذ الكبير أحمد أبو حاقة في شعره وخياله وروعة أثره وخلوده ندا لميلتون في « الفردوس المفقود » وضريبا «الدانتي الليفري» في « القوميديا الالهية » .

وكان نابغة الشعر العربي المعاصر فوزي المعلوف ـ عليه رحمة الله ـ صديقا للشاعر الاسباني « فيللا اسبيسا » الذي شاركه الشعور في الحياة والفكر وراح يرثيه بعد الموت . ولقد رحت أردد بأحزاني عليه شعر اسبيسا في نظيمه المعلوفي الاخاذ :

غرناطة أواه غرناطة
لم يبق شيء لك من صولتك

واستنح السوانح في تحياتي لصديقي الحميمين شقيقيه الشاعرين الكبيرين شفيق ورياض . مختتما كلامي بتحية عبقة بالاعجاب والتقدير لمؤلف « فن الشعر الملحمي » الاستاذ أحمد أبو حاقة .

دمشق **زكي المحاسني**

(١) طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ ص ١٤١ .

مشتل صور يبدأ انتاجه لمائة الف مزارع



يبدأ مشتل صور الذي انشأه المشروع الاخضر انتاجه الزراعي لاغراس ، ونصوب اشجار الفاكهة ، وسوف يضم مليونين منها .

وقد اقيم هذا المشتل وهو احدث مشتل في الشرق الاوسط على مساحة من الارض مساحتها ٦٠ الف متر مربع ، وجهز تجهيزا فنيا كاملا ، بما فيه المعدات الاوتوماتيكية والمعدات التي ترش الماء عن طريق قذفه الى الاعلى بحيث تتساقط قطرات ، الى جانب القاعة الزجاجية المكيفة بالحرارة التي تتيح في خلال ٣٦ يوما انبات العقلات وجذورها . وقد بلغ مجموع تكاليفه حوالي ١٠٠ الف ليرة لبنانية، دون ثمن الارض وهي ملك للدولة ، ويبلغ عدد المستفيدين منه حوالي مائة الف مزارع من ابناء الجنوب . وهذا المشتل هو واحد من اربعة مشاتل هامة في لبنان : اولها مشتل الشويفات الذي سوف يتضاعف انتاجه ، ومشتل طرابلس الذي سيبدأ اعداده وتجهيزه بعد ايام قليلة ، ومشتل البقاع الذي سيبدأ اعداده خلال الصيف الحالي . ومن مزايا هذه المشاتل انها سوف تنتج اصنافا مختلفة من اغراس وانصاب اشجار الفاكهة كالبرتقال ، والليمون الحامض ، والكرمة ، والخوخ ، والمشمش ، والزيتون ، والرمان ، والفستق والاكيدنيا .

ومن مزاياها كذلك انها سوف تتيح تنويع اصناف المزروع من اشجار الفاكهة وعدم الاكتفاء بانواع قليلة منها . ويستند هذا السعي الى التنويع على دراسة زراعية واقتصادية اجرتها في هذا المجال مؤسسة اجنبية في ٣٥ بلدا وشملت ٢٥ نوعا من اشجار الفاكهة ، الاكثر ملائمة وفائدة ورواجا .

وينبثق هذا العمل الزراعي الاقتصادي من سياسة الدولة التي تنطلق من التخطيط لحث خطوات التنمية وتحقيق العدالة الاجتماعية في جميع المناطق اللبنانية ، وتثبيت دعائم الوحدة الوطنية على اسس متينة راسخة .

الضمانات المصرفية واثرها في الاستقرار المالي وطمأنة الجمهور

*

واصل البنك الاهلي وبنك الرهونات اللبناني سيرهما الطبيعي بعد وضع اليد عليهما بموجب القانون رقم ٢٨/٦٧ الذي ضمن جميع الودائع لاصحابها . ويقوم مصرف التسليف الان بمهمة الاشراف على تسيير العمل في المصرفين المذكورين لتأمين دفع الودائع عند الطلب .

وقد ادى تطبيق هذه الضمانة الى طمأنة الجمهور وحصر السحوبات حتى الان في حدود مليونين ونصف مليون ليرة ، وذلك من اصل مجموع الودائع البالغ ٥٥ مليون ليرة ، اي ما يعادل نسبة خمسة بالمئة تقريبا .

ويأتي هذا التدبير في نطاق التشريعات والتنظيمات المصرفية التي اعتمدتها الدولة لتنقية القطاع المصرفي من الشوائب وتعزيز مركز لبنان المالي ولا سيما بعد انشاء مصرف لبنان الذي باشر نشاطه بتاريخ اول نيسان ١٩٦٤ .

واذ تضطلع بيروت بدور العاصمة الاولى للمصارف في الشرق الاوسط ، فقد كان من الضروري تركيز العناية بقطاع المال والنقد ، وهذا ما جعل مصرف لبنان المركزي يتحمل مسؤولياته التي واجه بها ازمة انترا والتي لم يبق من اثرها الا ما يدخل في نطاق اختصاص القضاء ، وذلك نتيجة للحل الذي ساعد مؤسسة انترا على اعادة فتح ابوابها واستئناف نشاطها .

وبعد ازمة انترا نشأت ازمات مصرفية عمل مصرف لبنان لازالتها وخصوصا في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ مما ضمن حماية زبائن المصارف وأمن السهر على سلامة الاوضاع المصرفية والاستقرار المالي .